

الحساب الصحيح من ببيان الحكم الرشيد

بحث تفصيلي في بيان علم الحساب وأهميته في نصره الحق وإقامة الميزان

تأليف

زكريا يوسف محمد أبوقرين الطرابلسي

قال الشافعي رحمه الله:

أُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ
لَعَلِّي أَنْ أُنَالَ بِهِمْ شَفَاعَهُ
وَأَكْرَهُ مَنْ تَجَارَتُهُ الْمَعَاصِي
وَلَوْ كُنَّا سَوَاءً فِي الْبِضَاعَةِ

المحتويات

9

المقدمة

15

1 الميزان الكوني والميزان الشرعي

15

1.1 المقدمة

16

1.2 الغاية من علم الحساب

18

1.3 الميزان الكوني

22

1.4 الميزان الشرعي

28

1.5 الإرادة الكونية والإرادة الشرعية

32

1.6 الهداية الكونية والهداية الشرعية

35

1.7 الميزان بمعنى العدل والميزان المخلوق

36

1.8 الأصل في هذا الكون استقراره وثباته وتوازنه وبركته

40

1.9 الظلم يتنافى الميزان الكوني والميزان الشرعي

42	1.10 المراد بالعلم والميزان
45	1.11 أقسام الميزان الكوني
45	1.11.1 الميزان السبيي
52	1.11.2 الميزان الغيبي
60	1.12 أقسام الميزان الشرعي
60	1.12.1 الميزان الفطري
63	1.12.2 الميزان الديني
67	1.13 الغاية من إرسال الرسل وإزالة الكتب
70	1.14 تفاوت الرسل في العلم والفضل ودعوتهم واحدة
73	1.15 الإصلاح وأنواعه
75	1.16 الحكمة والرشاد
78	1.17 مكانة أهل العلم الشرعي
81	1.18 حال الأنبياء وأتباعهم مع الميزان الشرعي
82	1.19 حال الأمم مع الحق والميزان الشرعي
86	1.19.1 الدولة الكافرة الظالمة الهالكة
87	1.19.2 الدولة المسلمة الظالمة
91	1.19.3 الدولة الكافرة الظالمة
92	1.19.4 الدولة الكافرة العادلة
94	1.19.5 الدولة المؤمنة العادلة

96	1.19.6 ملخص حال الأمم
98	1.20 الحساب من صور الميزان والجهل به من الأمية
100	1.21 الحساب الصحيح هو الميزان

2 حساب الله 103

103	2.1 مقدمة
103	2.2 صفة العد والحساب
105	2.3 التجارة مع الله في الدنيا
105	2.4 يوم الحساب
105	2.4.1 البعث
105	2.4.2 الحساب يبدأ عند الميزان وقبل الجزاء

3 الحكم الرشيد 111

111	3.1 مقدمة
112	3.2 أركان الحكم الرشيد
115	3.3 شروط الحكم الرشيد
116	3.4 واجبات الحكم الرشيد
118	3.5 الحكم الرشيد في زمن الصحابة
120	3.6 مختصر سيرة عمر بن عبد العزيز
133	3.7 الحساب في زمن الحكم الرشيد

3.8	عودة الحكم الرشيد في آخر الزَّمانِ	137
3.9	معادلات	137
3.10	نص الفصل الأول - الصفحة الثانية	138
3.11	نص الفصل الأول - الصفحة الثالثة	139

4 علم الحساب 141

4.1	مقدمة	141
4.2	أمثلة حسابية من القرآن والسنة	141
4.2.1	مكوث أهل الكهف	141
4.2.2	مكوث الوحي من عيسى عليه السلام إلى محمد ﷺ	143
4.2.3	عدد ساعات اليوم واللييلة	143
4.2.4	نسبية الوقت في القرآن	145
4.2.5	ظاهرة الغلاف الجوي	147
4.2.6	ظاهرة تعاقب الليل والنهار	147
4.2.7	ظاهرة توسع الكون	148
4.2.8	ظاهرة المجال المغنطيسي	149

5 الحساب الكوني 151

5.1	مقدمة	151
5.2	جداول	152

5.3 مراجع باستخدام BibTeX 153

5.4 نص الفصل الثاني - الصفحة الثانية 154

5.5 نص الفصل الثاني - الصفحة الثالثة 155

6 الذكاء الإصطناعي 157

6.1 مقدمة 157

6.2 المعرفة والوعي والإدراك 157

7 الملحق 159

7.1 مسألة العدل مع الكفار 159

7.2 مسألة الخروج على ولي أمر المسلمين 161

7.3 مسألة التفرق في الدين 165

7.4 مسألة تجريح الأعيان 165

المصادر 168

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العزيز العليم فائق الحب والنوى خلق كل شئ بقدر معلوم فقدره تقديرا. فائق الإصباح وجعل الليل سكا والشمس والقمر حسبانا فقدر للقمر منازلنا وجعل الشمس تجري لمستقر لها وكل في فلك يسبحون. لا إله إلا هو وحده لا شريك له إيماننا بروبوئته وتسليما وإقرارا بألوهيته وتصديقا بأسمائه وصفاته على الوجه الذي يحب ويرضى من غير تحريف ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل. بعث الرسل بالحق والميزان مبشرين ومنذرين وليبينوا للناس أمور دينهم وديناهم ومن أجلها إقامة التوحيد بإفراده سبحانه وحده بالعبادة بالطريقة التي ارتضاها وإقامة الميزان بالقسط والعدل بين الناس. ومن رحمته أنه أرسل محمدا ﷺ خاتما للنبيئين وأنزل عليه القرآن هدى وبشرى للمتقين، أما بعد:

هذا كتاب ألفتة لشرح علم الحساب وأهميته في العلوم الشرعية وبالأخص الحكم الرشيد والعلوم الكونية السببية النافعة مثل العلوم الطبيعية كالفيزياء وعلوم الحاسب كعلوم الآلة والذكاء الاصطناعي وما يمكن حسابه، مقدما بتفصيل الأمور الدينية المهمة في العقيدة والتفسير لبيان أهمية الحساب في الحكم الرشيد متبعا في ذلك ما جاء في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد ﷺ وسبيل المؤمنين من

سلف هذه الأمة وعلماؤها.

سميت هذا الكتاب: "الحساب الصحيح من بنیان الحكم الرشيد". فالحساب هو وسيلة يحتاجها الناس لغايات عديدة منها ما هو فرض، ومنها ما هو نافع، ومنها ما هو بخلاف ذلك. فالحساب هو مفتاح العلوم الكونية وهو السبيل لفهمها وبه تكشف العديد من حقائق وأسرار هذا الكون. فإن كانت الغاية من هذا الحساب هي منفعة الناس بالعموم في أمور دينهم ودنياهم وإقامة الميزان الشرعي الذي أمر الله به بالوسط والعدل كان هذا الحساب صحيحا وكان من بنیان الحكم الرشيد وكان سببا في الزيادة في الإيمان وإقامة العدل بين الناس وسبيلا للتطور العلمي والحضاري وقوة في دحر الأعداء ونشر الحق ونصرته.

اسئل الله العلي العظيم أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يبارك فيه ويجعله سببا لعودة أمة الإسلام إلى الطريق المستقيم، وأن يجعل دعوتنا دعوة الراشدين في العلم كما في قوله تعالى: وَالرَّاشِقُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ آل عمران. اللهم اجعل دعائنا كدعاء نبينا ﷺ كما جاء عن عائشة أم المؤمنين أن النبي ﷺ كان إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: اللَّهُمَّ رَبِّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (صحيح مسلم). وكما جاء أيضا عن عائشة أم المؤمنين أن النبي ﷺ علمها هذا الدعاء: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ مَا عَادَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ

النَّارِ وما قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا (صحيح ابن ماجه وصححه الألباني). وكما جاء عن أم المؤمنين أم سلمة أن أكثر دعاء نبينا ﷺ كان: اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك (صحيح الترمذي وصححه الألباني). وكما جاء عن عبدالله بن عمر أن نبينا ﷺ قلما يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللهم متعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا (صحيح الترمذي). وكما جاء عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أنه قال: لا أعلمكم إلا ما كان رسول الله ﷺ يعلمنا: اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والبخل والجبن، والحرم وعذاب القبر، اللهم ات نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع وعلم لا ينفع ودعوة لا يستجاب لها (صحيح النسائي). وعن أنس ابن مالك أنه قال: كثيرا ما كنت أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بهؤلاء الكلمات (وفي رواية في صحيح النسائي: لا يدعهن): اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال (صحيح الترمذي، صححه الألباني).

اللهم اعنا على إقامة الحق واجعلنا من المهتدين، واعنا على إقامة الميزان واجعلنا من المقسطين، واهدنا إلى الرشاد واجعلنا من المصلحين، وزدنا علما واجعلنا من المتقين. اللهم اهدنا إلى الإسلام واجعلنا من الذاكرين، واهدنا إلى الإيمان واجعلنا من المخلصين، واهدنا إلى الإحسان واجعلنا من الموقنين. اللهم ربنا نسألك الصلاح والصبر واليقين والهدى والتقى والعفاف والغنى واجعلنا اللهم من الشاكرين والفائزين، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان وجميع المسلمين والمسلمات

والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات فأنت سبحانك أرحم الرحمن. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ملاحظة:

هذا البحث ما هو إلا اجتهاد شخصي للمؤلف وقد يحتوي على أخطاء ونقص، فها وافق الحق فمن الله جل جلاله وما خالفه فمن نفسي واستغفر الله وأتوب إليه. يمكن للقارئ الكريم المساهمة بالنقد البناء في تصحيح وتحسين هذا الكتاب بإرسال ملاحظاته ومقترحاته وتعليقاته على البريد الإلكتروني.

الميزان الكوني والميزان الشرعي

1.1 المقدمة

علم الحساب من العلوم التي تدرك بالعقل والفطرة وقد يكون هو العلم الوحيد الذي يكاد لا يختلف عليه البشر بكافة أجناسهم وألوانهم وبالأخص لمن عرف هذا العلم وتمعن فيه صدقا، وذلك لأن الله جل جلاله خلق كل شيء بقدر معلوم ووضع الميزان الكوني فجعل هذا الكون موزونا ومتناسقا سبحانه، ومن فضله ومنه علي الناس أنه أرسل إليهم الرسل وأنزل الكتب بالحق والميزان الشرعي. ومن حكمته أنه سبحانه فطر الناس على فهم الميزانين وجعل لهم كل ما يحتاجونه من عقل وسمع وبصر. فجعل سبحانه آياته الكونية دليلا على الميزان الكوني وآياته الشرعية دليلا على الميزان الشرعي. وأرشد جل جلاله إلى التأمل في آياته الكونية لتعلم العدد والحساب وهذا لحكمته فالعدد والحساب يدرك بالعقل والفطرة ولهذا اكتفى سبحانه بالدلالة عليه. أما الميزان الشرعي فهو لا يدرك بالعقل والفطرة فقط وإنما يدرك بالوحي المنزل من عند الله تبارك وتعالى. والله جل جلاله تكفل بإقامة الميزان الكوني وأرسل الرسل وأنزل الكتب وفرض على الناس إقامة الميزان الشرعي. ولما كان الحساب هو الوسيلة

لمعرفة الحقائق وضبطها والطريق لمعرفة الأسباب وربطها، وجب النظر والبحث فيه وتعلمه من آيات الله الكونية لفهمها لما في ذلك من مصالح دينية ودنيوية كما أرشد سبحانه في كتابه العظيم.

1.2 الغاية من علم الحساب

علم الحساب من الضروريات التي يحتاج إليها الناس في أمور دينهم ودنياهم. فعلم الحساب هو الوسيلة لتحقيق الغاية العظيمة التي أمر الله بها وهي إقامة الميزان والعدل. ولهذا كان البحث في علم الحساب من الأمور التي حث الله تعالى عليها في موضعين في كتابه. قال تعالى: وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ الإسراء. يقول السعدي رحمه الله في تفسيره: (وَلِتَعْلَمُوا) بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر (عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ) فتبنون عليها ما تشاءون من مصالحكم. (وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلَنَاهُ تَفْصِيلًا) أي: بينا الآيات وصرفناه لتمييز الأشياء ويستبين الحق من الباطل كما قال تعالى: (مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) ﴿١﴾ [1]. وقال تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ يونس. يقول السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات: وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكير في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك، تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجود للذهن والقريحة ﴿١﴾ [1].

وفي هذا الحث والترغيب في علم الحساب الحكمة البالغة من الله جل جلاله. ومن ذلك أن

علم الحساب هو مفتاح جميع العلوم الكونية التي يمكن فيها العد والقياس والتي لا يمكن فهمها فهما صحيحا من دون الحساب الصحيح. فعلم الحساب به يفهم الميزان الكوني من آيات الله الكونية وبه يقام الميزان الشرعي باتباع آيات الله الشرعية. وهذا لأن علم الحساب ما هو إلا صورة من صور الميزان ولكن صورة معنوية وليست حسية، وبه تضبط المقادير وتعرف المجاهيل بعدة طرق منها ما هو سهل وبسيط وبحسب ذهنيا ومنها ما هو صعب ومعقد وبحسب كتابيا أو بإستخدام طرق حديثة. ومن الأمثلة لتطبيقات علم الحساب في اتباع آيات الله الشرعية كحساب أوقات الصلاة وعلم الموارث والزكاة والبيع والشراء وغيرها من المعاملات التي يحتاج إليها الناس. ومن الأمثلة على تطبيقات علم الحساب في فهم آيات الله الكونية كعرفة حركة الشمس والقمر وغيرها من الظواهر الطبيعية التي خلقها الله لما في ذلك من مصالح دينية مثل التفكير في عظمة الله والزيادة في الإيمان ومصالح دنيوية مثل حساب الوقت والمواسم.

وإن أفضل طريقة لفهم علم الحساب هي التأمل والتفكر في آيات الله الكونية وهي الظواهر الطبيعية التي خلقها الله وجعل لها الميزان الكوني لفهمها وحسابها. فهي المرجع لنا لتعلم الحساب وللتحقق من صحته. وهذا النهج هو نهج القرآن وهو أفضل الطرق وأحسنها. ويمكن أيضا دراسة علم الحساب مجردا من أي تطبيقات وهذا نهج معروف. ولكن الجمع بين العلوم الطبيعية كعلم الفيزياء والحساب لمحاولة محاكاة الظواهر الطبيعية هي الطريق الأمثل لتطوير علم الحساب وهذا معروف لأهل هذا العلم. وبهذا يكون الميزان الكوني طريقا لتعلم الحساب الصحيح ومن ثم يكون الحساب الصحيح وسيلة لإقامة الميزان الشرعي الذي أمر الله به.

1.3 الميزان الكوني

جعل الله جل جلاله الميزان في آياته الكونية لحكمته وعدله سبحانه ومن ذلك أنه جعل قيام الكون كله بالقسط أي بالعدل الظاهر ﴿٢﴾ [2].¹ فالميزان الكوني أمره عظيم لأن الله جل جلاله شهد به لنفسه ووصف نفسه به وفيه شأن الله وتديره لهذا الكون، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "يُدُّ اللَّهُ مِلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَخَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ"، وقال: "أَرَأَيْتُمْ مَا أَنتَفَقَ مِنْهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَدِهِ"، وقال: "عَرَّشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ يُخَفِّضُ وَيَرْفَعُ" (صحيح البخاري) ﴿٣﴾ [3]. وهذا فيه أن الميزان الكوني بيده سبحانه فهو قائم عليه بالقسط لا تأخذه في ذلك سنة ولا نوم، ولهذا كانت آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله فقد قال سبحانه: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ (البقرة). وعن أبي موسى قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَسِّ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَبْغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ. (رواه مسلم وصححه الألباني). وهذا فيه أن الله قائم على الميزان الكوني بنفسه بالعدل الظاهر ولذلك وصفه الله جل جلاله ورسوله ﷺ بالقسط.

ومن أعظم ذلك أن الله جعل قيامه على الميزان الكوني بالقسط في أعظم شهادة في كتابه الكريم فقال جل في علاه: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ آل عمران. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (قائماً بالقسط) أي: متكهما بالعدل مخبراً به أمراً به: كان هذا تحقيقاً لكون الشهادة شهادة عدل وقسط وهي أعدل من كل شهادة كما أن الشرك أظلم من كل ظلم وهذه الشهادة أعظم الشهادات [٥] وقيامه بالقسط يتضمن أنه يقول

¹ جاء في معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري أن القسط هو العدل البين الظاهر ومنه سمي الميزان قسطاً لأنه يصور لك العدل في الوزن حتى تراه ظاهراً وقد يكون من العدل ما يخفى.

الصدق ويعمل بالعدل كما قال: (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) وقال هود: (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فأخبر أن الله على صراط مستقيم وهو العدل الذي لا عوج فيه [٥]. وقال: (هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وهو مثل ضربه الله لنفسه ولما يشرك به من الأوثان كما ذكر ذلك في قوله: (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ) الآية. وقال: (أَفَنُيَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ) الآيات [٥]. ولهذا أمرنا الله سبحانه أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعم عليهم: من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وصراطهم هو العدل والميزان؛ ليقوم الناس بالقسط والصراط المستقيم هو العمل بطاعته وترك معاصيه فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل. والله سبحانه أعلم (مجموع الفتاوى 14/176).

وجاء في تفسير القرطبي عن الكلبى وأورده أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية في سبب نزول هذه الآية أنه لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام؛ فلما أبصرا المدينة، قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان. فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة والتعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم. قالوا: وأنت أحمد؟ قال: نعم. قالوا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك. فقال لهما رسول الله ﷺ: سلاني. فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله. فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ آل عمران، فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله ﷺ [هـ].

ولا يعلم على وجه التحديد متى خلق الله جل جلاله هذا الميزان الكوني ولكن يعلم بالضرورة أن هذا الميزان الكوني كان موجودا عندما رفع الله السموات حيث وضعه جل جلاله في يده. وكل ذلك كان بعد خلق القلم واللوح والعرش والماء، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ

القلم، فقال له: اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة. ومن مات على غير هذا فليس مني (صحيح أبي داود وصححه الألباني). وهذا فيه أن الله خلق القلم أولاً ثم خلق اللوح المحفوظ وأمر جل جلاله القلم أن يكتب على اللوح المحفوظ المقادير كلها إلى قيام الساعة. وكل هذا كان قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه جل جلاله على الماء كما صح ذلك عن النبي ﷺ أنه قال: كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ (صحيح مسلم). وسماها الله جل جلاله المقادير لأنه قدرها وعرف قدرها بعلمه وحكمته وعدله ورحمته سبحانه حتى يقوم بنفسه على ذلك في الميزان الكوني الذي وضعه سبحانه في يده بعد رفع السماء كما في قوله تعالى: وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ الرحمن. فيكون المعنى هنا الميزان الذي وضعه الله في يده بعد رفع السموات وهو الميزان الكوني ويحتل أيضاً الميزان الذي وضعه للمكلفين من خلقه من الإنس والجن وهو الميزان الشرعي كما في باقي الآيات الكريمة في قوله تعالى: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ الرحمن.

وكل هذا فيه أن الله جل جلاله قد جعل الميزان الكوني سبباً لإستقامة السموات والأرض وصلاهما كما في قوله تعالى: وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ المؤمنون. يقول السعدي في تفسيره: ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل، فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل [1]. وبهذا يعلم أن السموات والأرض تفسد بالظلم وهذا لا يكون لأن الله أقامهما بالميزان الكوني أي بالعدل. ولا يعلم صورة هذا الميزان ولا وصفه إلا بما وصفه الله جل جلاله ورسوله ﷺ به، ومن ذلك أن الله وضعه في يده ويخفض به ويرفع وهو قائم عليه بنفسه كما

قال الرسول ﷺ: ما من قلبٍ إلا وهو معلقٌ بينَ إصبعينَ منَ أصابعِ الرحمنِ، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه، والميزانُ بيدَ الرحمنِ، يرفعُ أقواماً، ويخفضُ آخرينَ، إلى يومِ القيامةِ (صحيح، الجامع الصغير). وهذا فيه أن هذا الميزان هو الميزان الكوني التابع لإرادة الله الكونية وأن الله قائم عليه بالقسط إلى قيام الساعة وهو غير الميزان الشرعي التابع لإرادة الله الشرعية الذي يوضع يوم الحساب كما سيأتي بيانه. فالميزان الكوني فيه شأن الله وتدييره لهذا الكون الذي قال فيه جل في علاه: يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ الرحمن. وبهذا يكون الميزان الكون فيه شأن الله وتدييره للكون كما قال تعالى: وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ الرحمن. والميزان الشرعي فيه شأن العباد وتدييرهم لأنفسهم بما كلفهم الله به كما قال تعالى: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ الرحمن.

والميزان الكوني قد تكفل به سبحانه عدلا وتدييرا وهو دليل على عظمته وقدرته إذ يتعذر على غيره العيش من دونه فضلا عن إقامته، ومن ذلك أن الله عدل في قضاءه ومشيئته وحليم في تدييره والدليل على هذا قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ فاطر. فهذا دليل على وحدانيته سبحانه بالملك والتدبير، فالأدلة العقلية والشرعية دلت على وحدانيته سبحانه ومن ذلك أنه جعل هذا الكون موزونا ومتناسقا بإرادته الكونية لا يشاركه في ذلك أحد كما في قوله تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ الأنبياء. وقد جاء في تفسير السعدي في شرح هذه الآيات أن العالم العلوي والسفلي، على ما يرى، في أكل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة، ولا معارضة، فدل ذلك، على أن مدبره واحد، وربّه واحد، وإله واحد، فلو كان له مديران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا

أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور، غير ممكن، فإذا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: مَا اخْتَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ المؤمنون [1].

1.4 الميزان الشرعي

ومن حكمته سبحانه وتعالى أنه تكفل بإقامة الميزان الكوني وفرض على المكلفين من الجن والإنس إقامة الميزان الشرعي كما في قوله: وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ الرحمن. وقد جاء في تفسير السعدي أن معنى ووضع الله الميزان أي: العدل بين العباد، في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم [1]. وهذا بالتأكيد يشمل علم الحساب والذي به تضبط المقادير وتحسب المجهولات فهو أيضاً صورة من صور الميزان. وكل هذا فيه أن الله عز وجل فرض على المكلفين من الإنسان والجن إقامة الميزان الشرعي. وفيه أيضاً أن الله عز وجل جعل العدل في آياته الشرعية كما في آياته الكونية وهذا دليل على حكمته وكإل عدله سبحانه.

وبهذا يتبين أن المقصود والمراد من إقامة الميزان بالمجمل هي إقامة الميزان الشرعي الذي كلفنا

الله جل جلاله به، وهو العدل في جميع الأقوال والأفعال، وهو الإستقامة على دين الله جل جلاله، وهذا يشمل جميع العبادات التي يحبها الله ويرضاها والتي أمر الله عباده بها عن طريق الرسل والكتب ومن ذلك إقامة الميزان والكيل بالقسط والصدق في القول والعمل ومنه بلا شك الحساب الصحيح. وبهذا يتبين أن الميزان الشرعي، حاله كحال الحق، هو من الأمانة في قوله تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ الأحزاب. وفي تفسير ابن كثير: قال العوفي عن ابن عباس يعني بالأمانة الطاعة [٥]. وقال قتادة الأمانة الدين والفرائض والحدود [هـ].

والميزان الشرعي هو أيضا من الميثاق الذي ذكره الله في قوله: وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧٠﴾ المائدة. يقول السعدي في تفسيره رحمه الله: و (مِيثَاقُهُ) أي: واذكروا ميثاقه (الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ) أي: عهده الذي أخذه عليكم. وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهما، ولهذا قال: (إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان واتباع. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة. وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على بال، ويحرصون على أداء ما أُمرُوا به كاملا غير ناقص. (وَاتَّقُوا اللَّهَ) في جميع أحوالكم (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعملوا قلوبكم بمعرفته ومحبهه والنصح لعباده. فإنكم -إن كنتم كذلك- غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعل به صلاح قلوبكم [1].

ولهذا فإن الميزان الشرعي يعتبر من الأمانة والميثاق الذي واثق الله به المؤمنين وأمرهم به ليجزى كل نفس بما كسبت. وبهذا يتبين أن الميزان المخلوق الذي يوضع بعد الصراط يوم القيامة إنما هو الميزان الشرعي وهذا من عدل الله إذ جعل الميزان الذي يوزن به الناس يوم القيامة هو الميزان الشرعي الذي كلفهم به. وقد صح عن الرسول ﷺ أن هذا الميزان يوضع في صورة مخلوق بعد الصراط فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: أَنَا فَاعِلٌ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيْنَ أَطْلُبُكَ، قَالَ: اطْلُبْنِي أَوَّلَ مَا تَطْلُبْنِي عَلَى الصِّرَاطِ. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عَلَى الصِّرَاطِ، قَالَ: فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْمِيزَانِ. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ، قَالَ: فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْحَوْضِ فَإِنِّي لَا أَخْطِئُ هَذِهِ الثَّلَاثَ الْمَوَاطِنَ (صحيح الترمذي وصححه الألباني). وهذا فيه أن الميزان الشرعي يوضع في صورته بعد الصراط مباشرة وقبل الحوض. وقد صح عن أحد أصحاب النبي ﷺ أنهم رأى هذا الميزان الشرعي في منامه كما جاء عن النبي ﷺ أنه ذات يوم قال لأصحابه: مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا؟ فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، رَأَيْتُ كَأَنَّ مِيزَانًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فَوُزِنَتْ أَنْتَ وَأَبُو بَكْرٍ فَرَجَحْتَ أَنْتَ بِأَبِي بَكْرٍ، وَوُزِنَ عُمَرُ وَأَبُو بَكْرٍ فَرَجَحَ أَبُو بَكْرٍ، وَوُزِنَ عُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَحَ عُمَرُ، ثُمَّ رَفَعَ الْمِيزَانُ. فَرَأَيْنَا الْكَرَاهِيَةَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (صحيح أبي داود، وصححه الألباني). وهذا فيه بيان الميزان الشرعي الذي ربح بحسب من فضل الله به النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

والأدلة في وصف الميزان الشرعي ووصف حال المكلفين وأعمالهم وهم يوزنون عليه كثيرة ومنها قوله تعالى: وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ الأعراف. وقال تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ الأنبياء. وقال تعالى: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ

فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ المؤمنون. وقال تعالى: فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ القارعة. ومن سوء حال الكافرين بآيات الله ولقائه أنهم يوم الحساب تحبط أعمالهم فلا يتعدون الصراط فيلقون في جهنم قبل أن يدركوا الميزان الشرعي كما قال تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ الكهف. فكل ذلك فيه وصف حال وأحوال الناس وأعمالهم قبل وعند وبعد الميزان الشرعي الذي كلف الله جل جلاله المكلفين به من الجن والإنس فنسأل الله العفو والعافية. اللهم فاعف عنا وارحمنا وتجاوز عن سيئاتنا. اللهم ارحمنا فأنت ارحم الراحمين.

ولهذا فإن هذا الميزان الشرعي موافق لما شرعه الله تعالى وقد وصف النبي ﷺ وزن الأعمال الصالحة في هذا الميزان الشرعي ومن ذلك قوله: ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليلعب به درجة صاحب الصوم والصلاة (صحيح الترمذي، وصححه الألباني). وفي رواية أخرى عن أبو الدرداء أن النبي ﷺ قال: من أُعطيَ حظُّه من الرِّفْقِ فقد أُعطيَ حظُّه من الخير ومن حُرِمَ حظُّه من الرِّفْقِ ؛ فقد حُرِمَ حظُّه من الخير. أثقلُ شيء في ميزانِ المؤمن يومَ القيامةِ حُسْنُ الخلقِ، وإنَّ اللهَ لَيَبْغِضُ الفاحشَ البذيءَ (صحيح الأدب المفرد، وصححه الألباني). وقال ﷺ أيضا: كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ (صحيح البخاري، وصححه الألباني). وقال أيضا: الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (صحيح مسلم). وقد جاء أيضا أن النبي ﷺ قال: يَنْجُو بَخْ - وأشار بيده بيمينه - ما أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَقَّى لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فيَحْتَسِبُهُ (صحيح ابن حبان، والسلسلة الصحيحة للألباني). وقد جاء أيضا أن النبي ﷺ أمر

عبد الله بن مسعود أن يصعد شجرة فيأتيه منها بشيء، فظفر أصحابه إلى ساق عبد الله فضحكوا من حوشة ساقه، فقال رسول الله ﷺ: «مما تضحكون! لرجل عبد الله أثقل في الميزان من أحد (السلسلة الصحيحة للأباني)». وقال أيضا ﷺ: «لو أن علم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وُضع في كفة الميزان، ووُضع علم أهل الأرض في كفة، لرجح علم عمر بن الخطاب رضي الله عنه (صححه الأباني)». والمراد هنا علم عمر الشرعي وهذا فيه فضل عمر رضي الله عنه فقد بشره بذلك النبي ﷺ فقال: «بيننا أنا نائمٌ أُتيتُ بقَدَحٍ لبنٍ، فشربتُ منه، ثُمَّ أُعْطِيتُ فضلي عمر بن الخطاب قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم (صحيح البخاري)». أي العلم الشرعي ورؤيا الأنبياء حق. فكل ذلك فيه أن المراد في كل هذه الأحاديث هو الميزان الشرعي والذي يوافق أمر الله الشرعي لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال وهو بخلاف الميزان الكوني الذي جعله الله بيده لتدبير الكون كما تقدم.

ومن رحمة الله جل جلاله ومنه على المكلفين أنه جعل وزن الأعمال الصالحة في الميزان الشرعي تتضاعف وأقل ذلك عشرة أضعاف كما في قوله تعالى: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» ﴿١٦٠﴾ الأنعام. ويزيد سبحانه وتعالى في فضله على عباده كيف يشاء فيضاعف الحسنات أضعافا كثيرة كما في قوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» ﴿٢٤٥﴾ البقرة. وعن عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِفَعْلِهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِثَّةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعْمَلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً. وفي رواية: وزاد: ومحامها الله ولا يهلك على الله إلا هالك (صحيح مسلم). ولكن الله جل جلاله وضع شرط لهذا الفضل العظيم

وهو أن يلتقي العبد ربه وهو لا يشرك به شيئاً ولهذا فقد جاء عن أبو ذر الغفاري أن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى: مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً، فَلَهُ عَشْرُ امْتَالِهَا. وَأَزِيدُ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فُجِرَ أَوْهَا مِثْلُهَا، أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ عَمِلَ قُرَابَ الْأَرْضِ خَطِيئَةً، ثُمَّ لَقِيَنِي لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئاً جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَهَا مَغْفِرَةً، وَمَنِ اقْتَرَبَ إِلَى شَيْءٍ، اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَمَنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً، اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً، وَمَنْ أَتَانِي يَمِينِي، أَتَيْتُهُ هَرُولَةً (صحيح الجامع، وصححه الألباني).

ومن واسع فضل الله جل جلاله أنه جعل الحسنات في الميزان الشرعي تذهب السيئات وتبدلها فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قِبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُلُقًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلَّذِينَ ﴿١١٤﴾ هود فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: لِمَجْمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ (صحيح البخاري). ولقد بين النبي ﷺ حساب العشرة الأضعاف من الحسنات خلال اليوم واللييلة في الذكر وأنها تغلب السيئات فقال: خَصَلْتَانِ لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَلَا وَهُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ، يُسَبِّحِ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا (10)، وَيُكَبِّرُهُ عَشْرًا (10)، فَذَلِكَ خَمْسُونَ وَمِائَةً بِاللِّسَانِ (150 = 5 × 30 أي في الصلوات الخمس)، وَأَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ (1500 = 10 × 150 أي عشرة أضعافها). وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ (34)، وَيُحَمِّدُهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ (33)، وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ (33)، فَتِلْكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ (100 = 33 + 33 + 34)، وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ (1000 = 10 × 100 أي عشرة أضعافها)، فَأَيْكُمُ يَعْمَلُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَيْنِ وَخَمْسَمِائَةِ سَيِّئَةٍ (2500 = 1000 + 1500 أي عدد الحسنات الكلي) (صحيح الجامع، وصححه الألباني).

وكل هذا فيه أن الله تبارك وتعالى يبارك في الأعمال الصالحة على الميزان الشرعي وينمها كما في

قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ البقرة. ولهذا فقد وصف الله جل جلاله من جاء بالأعمال الصالحة التي ترضي الله بالفائزين فقال: وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ النور. وقد ميز سبحانه بذلك أصحاب الجنة عن أصحاب النار فقال جل جلاله: لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ الحشر. وأما أصحاب النار فهم الخاسرون بعدل الله وذلك لأنه لم يكن لهم من الأعمال الصالحة ما فيه نجاتهم بما يرضي الله جل جلاله كما قال تعالى: الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ البقرة. ومن أعظم موجبات الخسران هو الكفر بالله وآياته والشرك به فهذا هو الخسران المبين كما قال تعالى: فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ الزمر. وبذلك فإن الخاسرين يوم القيامة يخسرون الإنتفاع بفضل الله العظيم ما فيه نجاتهم من النار، من مضاعفة الأعمال الصالحة وذهاب السيئات بالحسنات فيكونون من أصحاب السعير والعياذ بالله ولهذا فقد قال النبي ﷺ: وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ (صحيح مسلم).

1.5 الإرادة الكونية والإرادة الشرعية

قرر أهل العلم الشرعي من أهل السنة والجماعة في هذا الباب العظيم وبناء على الأدلة والبراهين الواضحة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وما يوافق النقل والعقل، أن الله جل جلاله له أراءتان وهما الإرادة الكونية والإرادة الشرعية. فالإرادة الكونية هي ما تعلق بمشيئته سبحانه والإرادة الشرعية هي ما

تعلق بمحبته ورضاه. فإرادة الله الكونية نافذة كما في قوله تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ يس. وأما الإرادة الشرعية فهي إرادة بيان لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال كما في قوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتَوَبَّ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَوَبَّ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ النساء.

ولما كان الله عز وجل فعال لما يريد كما في قوله تعالى: فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ النحل، كان قضاءه تابعا لإرادته أي سبحانه له كذلك قضاء كوني وقضاء شرعي. فالقضاء الكوني هو ما أَرَادَهُ اللهُ كونه فشاء أن يكون فكان بعزته وعلمه وقدرته سبحانه كما في قوله تعالى في هذه الآيات: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ^ط وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ البقرة. وأما قضاءه الشرعي فهو ما أَرَادَهُ اللهُ شرعا فأمر الله عباده به مثل قوله تعالى: وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ^ج إِنَّمَا يَلْغَىٰ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ الإسراء. فلو كان هذا قضاء كونيا لكان الناس أمة واحدة على التوحيد ولكن الله نفى ذلك بقضاءه الكوني أي بمشيئته الكونية كما في قوله تعالى: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ^ج وَلِتَسَّالُنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ النحل. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ^ط وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ الأحزاب. فهذا أيضا من القضاء الشرعي ووجه ذلك أنه سبحانه ألزمهم بإتباع أمره الشرعي لأن ذلك من مقتضيات الإيمان ولهذا جاء التحذير في نهاية الآية لمن خالف وعصى أمر الله ورسوله، فلو كان هذا قضاء كونيا لكان ما أَرَادَهُ اللهُ ولم يسع لأحد أن يختار شيئا من ذلك حيث أن أمر الله الكوني نافذ لا محالة.

وكذلك حكم الله تابعا لإرادته وله سبحانه الحكم الكوني وهو تابع لأرادته الكونية والحكم الشرعي وهو تابع لإرادته الشرعية كما في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ ^ج أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ^ط إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ^{١٠١} المائدة، وهذا في الحكم الشرعي كما دل سياق الآية. وقوله تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ ^ج لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ^{٤١} الزعد. ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري (أي الكوني) والجزائي كما جاء في تفسير السعدي رحمه الله.

فحكم الله وقضاه وأمره الكوني نافذ وماض بإرادته الكونية وبما شاء وهو عدل في ذلك لا يشاركه فيه غيره سبحانه كما قال تعالى: وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ^ط وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا ^ق إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ^{٢٠} غافر. وقد جاء في تفسير ابن كثير أن قوله: (والله يقضي بالحق) أي: يحكم بالعدل، وقوله: (والذين يدعون من دونه) أي: من الأصنام والأوثان والأنداد، (لا يقضون بشيء) أي: لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء [هـ]. وكما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ماضي في حكمك، عدل في قضاؤك» (أخرجه أحمد وصححه الألباني).

وفي كل ذلك فإن الله هو أحكم الحاكمين كما في قوله تعالى: أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ^ج ^٨ التين. وهو أيضا خير الحاكمين كما في قوله: وَاتَّبِعْ مَا يوحىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ^{١٠٩} يونس. فالحكم كله لله تعالى ومنه الحكم الجزائي وهو سبحانه خير الفاصلين كما في قوله تعالى: إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ^{٥٧} الأنعام. وذلك لأن الله عز وجل عدل في إرادته وحكمه وقضاه العدل التام المنافي للظلم والدليل قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ^ق وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ^{١٠٨} آل عمران. ومن ذلك أن الله عدل في جزاءه وثوابه كما أخبر هو بذلك في قوله تعالى: وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم

بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ الحاقة. وقوله تعالى: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ^ط فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ يونس.

وقد ثبت في السنة أن الله عز وجل حرم الظلم على نفسه في حكمه الكوني وعلى عباده في حكمه الشرعي فعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ: يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعُمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْصِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ، كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْخَيْطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصَيْهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ. وفي رواية: إِنِّي حَرَمْتُ عَلَى نَفْسِي الظُّلْمَ وَعَلَى عِبَادِي، فَلَا تَظَالُمُوا. (صحيح مسلم).

وهذا فيه أن الله جل جلاله لم يحرم الظلم على عباده كونا بل حرمه شرعا وهذا من حكمته سبحانه فقد بين حكمه الشرعي للمكلفين حتى يغفر لمن يشاء برحمته ويعذب من يشاء بعدله في حكمه الجزائي كما في قوله تعالى: وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ الفتح. وقد جاء في تفسير السعدي أن معنى ذلك أن الله تعالى هو المنفرد بملك

السموات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدريّة، والأحكام الشرعيّة، والأحكام الجزائيّة، ولهذا ذكر حكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعيّة، فقال: (يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ) وهو من قام بما أمره الله به (وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ) ممن تهاون بأمر الله، (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) أي: وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره المردار، آناء الليل والنهار [1]. فهذا الحكم الجزائي مرتبط بعدل الله وهدايته فيغفر لمن يشاء بأن يهديه للإسلام والطاعة ويعذب من يشاء بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر فيعمل الشر ويعذب على ذلك كما جاء بيان ذلك في تفسير السعدي رحمه الله. وهذا المعنى هو المعنى الصحيح ولقد بينه جل في علاه في قوله: فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ الأنعام.

1.6 الهداية الكونية والهداية الشرعية

وكما أن الله عز وجل له إرادتان الكونية والشرعية فإن له سبحانه أيضا هديتان وهما الهداية الكونية وهي هداية التوفيق والإنقياد والهداية الشرعية وهي هداية المعرفة والإرشاد. واجتمعت الهديتان في قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ الشورى. ووجه ذلك أن الله عز وجل يهدي من يشاء ومن يريد فهذه الهداية المرتبطة بمشيئته وإرادته سبحانه هي الهداية الكونية وقد وردت في عدة مواضع في القرآن منها قوله تعالى: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ القصص. وفي قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾ الحج. وأما الهداية الأخرى في قوله تعالى: (وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فهي المرتبطة بمعرفة الحق وهي الهداية الشرعية وقد وردت أيضا في عدة مواضع في القرآن منها قوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتَوَبَّ عَنْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ النساء. وهذه الهداية تكون مرتبطة بالوحي وهي هداية بيان للحق كما في قوله تعالى: وَرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ الأنعام.

وبهذا يتبين أن كل المخلوقات مسيرين بإرادة الله الكونية وأن المكلفين منهم من الجن والإنس مخيرين بإرادة الله الشرعية. والهداية الكونية الراجعة إلى مشيئة الله هي الغالبة، فمن عرف الحق وعمل به فقد هدى شرعا وكونا أي اجتمعت فيه الهدايتان ومثال ذلك أصحاب النبي ﷺ. والناس في كل ذلك درجات برحمة الله وكرمه وبما فضل الله بعضهم على بعض، ومن عرف الحق ولم يعمل به فقد هدى شرعا ولم يهدى كونا أي لم تجتمع فيه الهدايتان ومثال ذلك ابليس لعنه الله. والناس في ذلك دركات بعدل الله وغضبه وبما أغوى الله بعضهم على بعض. وسيأتي تفصيل ذلك في بيان يوم الحساب الذي فيه يكون الحساب بوزن الأعمال وبعده يأتي الجزاء إما جنة أو نار.

ولقد الله عز وجل جعل لهدايته الكونية مسببات منها الإنابة إليه كما في قوله تعالى: اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ الشورى. وقوله تعالى: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ ﴿٢٧﴾ الرعد. ومن ذلك أيضا الإيمان بالله والأعتصام به كما في قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ النساء. ومن ذلك أيضا إتباع أمر الله الشرعي الذي يحبه الله

ويرضاه كما في قوله تعالى: يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ المائدة. وهذا كله من عدل الله ورحمته سبحانه. ومن أسباب الهداية والثبات الدعاء فإن أكثر دعاء نبيينا ﷺ كان في ثبات القلب كما جاء عن أم سلمة أن أَكْثَرَ دَعَائِهِ كَانَ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَكْثَرَ دَعَاكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ فَنَلَا مَعَاذُ رَبِّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا (صحيح الترمذي وصححه الألباني). وهذا فيه أن الله جل جلاله يقلب القلوب بين أصابعه بإرادته الكونية وأن الدعاء قد يكون سببا للهداية الكونية والتي بها يكون الثبات على الدين والطاعة.

ومن أعظم أسباب الهداية هي الجهاد في سبيل الله كما في قوله تعالى: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ العنكبوت. وقد جاء في تفسير السعدي قوله: دل هذا، على أن أخرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهداده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نَوَعِي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين [1].

1.7 الميزان بمعنى العدل والميزان المخلوق

العدل مرادف للميزان، والعدل هو صفة من صفات الله جل جلاله والله عدل في إرادته الكونية والشرعية، فالميزان الكوني تابعاً لإرادة الله الكونية والميزان الشرعي تابعاً لإرادة الله الشرعية. وكل هذا على وجه الإجمال. وأما على وجه التفصيل، فالميزان الكوني هو العدل في إرادة الله الكونية والميزان الشرعي هو العدل في إرادة الله الشرعية.

ولكن الله عز وجل جعل الميزانين كل منهما في صورة مخلوق لحكمته ولإظهار عدله سبحانه، فخلق سبحانه الميزان الكوني ووضعه بيده والذي فيه تدبيره للكون وهو قائماً عليه بالقسط كما في قوله تعالى: **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴿١٨﴾ آل عمران. ويخلق سبحانه الميزان الشرعي يوم القيامة ويضعه لحساب المكلفين وأعمالهم كما في قوله تعالى: **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا** ^ط **وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ** ﴿٤٧﴾ الأنبياء.

وبهذا يعلم بالضرورة أن الميزان الكوني المخلوق الذي يضعه الله جل جلاله في يده كما صح ذلك عن النبي ﷺ فيه شأن الله وتدبيره لهذا الكون بما في ذلك السماوات والأرض. وأما الميزان الشرعي المخلوق الذي يوضع بعد الصراط وقبل الحوض كما صح ذلك عن النبي ﷺ فيه شأن حساب المكلفين وأعمالهم يوم القيامة. فدل ذلك على أن الميزان الكوني المخلوق أعظم من الميزان الشرعي المخلوق، وكل منهما من عدل الله ورحمته. وهذا لأن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق الناس كما في قوله تعالى: **لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴿٥٧﴾ غافر. فكل هذا فيه أن شؤون الخلق ومن ذلك البعث والحساب أهون على الله جل جلاله

1.8. الأصل في هذا الكون استقراره وثباته وتوازنه وبركته

من أمر السموات والأرض كما في قوله تعالى: **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴿٢٧﴾ الروم. وقال السعدي في بيان معنى (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ): وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول.

وهذا فيه بيان أن التفاوت هنا في قوله (وهو أهون عليه) ليس في ذات الله وقدرته فهو سبحانه على كل شيء قدير ولا يعجزه شيء ولكن هذا التفاوت إنما هو لبيان الحجة العقلية حيث أن من خلق الإنسان وخلق السموات والأرض وهي أكبر وأعظم، قادر على إحياء الموتى من باب أولى. فتكون الحجة العقلية هنا أن من لم يعجزه الإبتداء لا تعجزه الإعادة وخصوصا لما هو أسهل فهذا أهون. وقد جاء في تفسير ابن كثير وتفسير الطبري: عن ابن عباس قوله: (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) يقول: كل شيء عليه هين [هـ]. وقد جاء في تفسير القرطبي: فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلا على ما يخفى من إعادته؛ استدلالا بالشاهد على الغائب [و]. قال أبو عبيدة: ومن جعل أهون يعبر عن تفضيل شيء على شيء فقله مردود بقوله تعالى: (وكان ذلك على الله يسيرا)، ويقول: (ولا يؤده حفظهما). والعرب تحمل أفعّل على فاعل [و] وأنشد أبو عبيدة أيضا: إني لأنحك الصدود وإنني قسما إليك مع الصدود لأميل (أراد للمائل) [و] ووجهه أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعباده [هـ]. وهذا فيه أن الله جل جلاله يخاطب عباده بما يناسب فهمهم وعقولهم وهذا من عدله ورحمته جل جلاله.

1.8 الأصل في هذا الكون استقراره وثباته وتوازنه وبركته

من المعلوم بالضرورة وما دلت عليه البراهين الشرعية والعقلية أن الأصل في هذا الكون استقراره وثباته وتوازنه وبركته حتى يصلح للحياة ومن ذلك أن الله عز وجل جعل الأرض مستقرة وثابتة

ومبسوطة والجبال أوتادا والسماء مرفوعة والسحاب والرياح مسخرة والفلك والأنهار جارية والبحار محسورة والشمس سراجا والقمر نورا والنهار معاشا والليل سكا والنجوم دليلا والشجار مثمرة والدواب متحركة وسائر المخلوقات المتنوعة وغيرها من الآيات العظيمة الدالة عليه والمرشدة إليه. فكل ذلك من آيات الله الكونية الدالة على عظمته وحكمته سبحانه والتي أراد الله منا بإرادته الكونية أن نراها وبيادته الشرعية أن نتدبر فيها ونتمتع في تفاصيلها بما أودع فينا من عقل وفطرة. وقد قال تعالى في ذلك: وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرُكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ النمل. وقوله تعالى: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ فصلت.

والآيات في ذلك عديدة ومنها قوله تعالى: أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ الْأَنْبِيَاءُ. وقوله تعالى: وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ يس. وقوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ

مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ البقرة. وقوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ الأنعام.

وكل هذا فيه الحجة البالغة العقلية والشرعية على استحقاق الله جل جلاله للعبادة وحده لا شريك له بالطريقة التي ارتضاها ومن ذلك وجوب تسبيحه وتقديسه بأسمائه وصفاته بدون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل إذ قال جل جلاله: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ جَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ الأعلى. وجاء في تفسير السعدي في بيان معنى هذه الآيات أنه تعالى يأمر بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحا، يليق بعظمة الله تعالى، بأن تذكر أسمائه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم. (الذي خلق فسوى) أي: أتقنها وأحسن خلقها (وَالَّذِي قَدَّرَ) تقديرًا، تتبعه جميع المقدرات (فَهَدَى) إلى ذلك جميع المخلوقات. وهذه الهداية العامة، التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال فيها: (وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى) أي: أنزل من السماء ماء فأثبت به أنواع النبات والعشب الكثير، فرتع فيها الناس والبهائم وكل حيوان، ثم بعد أن استكمل ما قدر له من الشباب، ألوى نباته، وصوح عشبته. (جَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى) أي: أسود أي: جعله هشيماً رميمًا، ويذكر فيها نعمه الدنيوية [1]. فتبارك الله أحسن

الخالقين.

فولوا ثبات الكون وإستقراره وبركته لما صلح للحياة ولما كانت الحياة ممكنة ومستقرة ومنتظمة ومنتجة. ولهذا فإن الإنسان يعيش في هذا الكون وليستفيد منه ومن ثماره ونعمه وبركاته وموارده ومعادنه وغيرها من الأشياء التي جعلها الله في هذا الكون ليستفيد منها بفضلله ورحمته ومنه علينا. وفي ثبات الكون وإستقراره غايات عظيمة ومصالح كثيرة ومنها تعلم العدد والحساب كما في قوله تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾ يونس.

فكل هذه الآيات واضحة في دلالتها على عظمة الخالق وحكمته وعدله ورحمته. ولهذا فقد ذكر الله عز وجل أن آياته لقوم يعقلون، يعلمون، يفقهون، يؤمنون، يوقنون، أو يتفكرون، وهم أولي الألبات الصادقين حقا مع أنفسهم ومع خالقهم بما أودعه فيهم من هداية وبصيرة بفضلله ومنه عليهم. وهم الذين آمنوا بالله حقا على يقين ولم يرتابوا وجاهدوا في الله لنصرة الحق كما في قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ الحجرات. ولهذا ما ينكر هذه الآيات الواضحة إلا المعاندين لها والكافرين بها والمشككين فيها والمعرضين عنها وعن خالقهم كفرا وعدوانا وظلما. ولهذا فقد ساهم الله جل جلاله العمي وحجب عنهم الهداية الكونية ونفى عنهم اليقين بعدله سبحانه فقال لنبيه: وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ^ط إِن تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ النمل. وهم الذين يجادلون في آيات الله بالباطل فطبع الله على قلوبهم كما في قوله تعالى: الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ^ط كَبِيرٌ مَّقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ غافر. وقوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ^ل إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ^ج إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ غافر. فهم تكبروا عن قبول الحق لكفرهم كما قال تعالى: مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾ غافر.

1.9 الظلم ينافي الميزان الكوني والميزان الشرعي

ومن عدله وحكمته سبحانه أنه جعل الظلم منافيا ومخالفا للميزان الشرعي كما جعله سبحانه منافيا للميزان الكوني. فهذا فيه أن الكون محفوظ بإمر الله الكوني وبعده ولكن هذا الحفظ والإستقرار إنما جعله الله برهانا واضحاً على ربوبيته وألوهيته حتى يقيم المكلفين الحق والميزان الشرعي، ولهذا فإن الله جل جلاله جعل الظلم من أسباب البلاء الذي يقع بإذنه إما لحكمته أو عدله أو رحمته. ويقع هذا البلاء في صور مختلفة منها الجوع والخوف وقلة المطر والزلازل وذهاب البركة وغير ذلك. ومن أعظم الظلم الكفر بالله كالشرك كما في قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ^ط إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ لقمان. أو دعوة الولد له سبحانه والدليل قوله تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تكادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ مريم. يقول السعدي رحمه الله: أي من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات، أن يكون منها ما ذكر. والحال أنه: (مَا يَنْبَغِي) أي: لا يليق ولا يكون (لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) وذلك لأن اتخاذه الولد، يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد. والولد أيضاً، من جنس والده، والله تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سمي [1].

وهذا فيه أن الشرك ونسبة الولد لله سبحانه هو من الظلم الذي لا ينافي فقط الميزان الشرعي

الذي أمر الله به، وأما ينافي أيضا الميزان الكوني فيكاد يحصل الإضراب الذي به يكون خراب هذا الكون. ولهذا فإن دعوة الولد أو صاحبة الله جل جلاله من شتم الله والإشراك به سبحانه ولهذا فقد نزه سبحانه نفسه عن ذلك كله في قوله: وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ مريم. وقد صح عن عبد الله بن عباس وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أن الله قال: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَّنِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَرَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا. وفي رواية أخرى: أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي لَنْ أُعِيدَهُ كَمَا بَدَأْتُهُ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ (صحيح البخاري).

ومما ينافي عدل الله الكوني والشرعي أيضا اتباع الهوى بدلا من إقامة الحق ونصرتة كما في قوله تعالى: وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ المؤمنون. يقول السعدي في تفسيره: ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل، فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل [1].

ومن ذلك أيضا نقصان البركة بسبب المعاصي كما في قوله تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ الروم. فقد ورد في تفسير

القرطبي أن ابن عباس قال: هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا [هـ]. وجاء في تفسير ابن كثير أن زيد بن رفيع قال: (ظهر الفساد) يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر تعمى دوابه [هـ].

ومن ذلك أيضا الكفر بأنعم الله كما في قوله تعالى: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ النحل. وقوله تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ القصص. وجاء في تفسير ابن كثير معنى ذلك أي: طغت وأشرت وكفرت نعمة الله، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق [هـ]. وسيأتي توضيح أسباب هذا العذاب في بيان حال الأمم مع الحق والميزان.

1.10 المراد بالعلم والميزان

إن المراد بالعلم عموما هو المعرفة وله أقسام وأنواع ويمكن تقسيمه إلى قسمين وهما: العلم الكوني والعلم الشرعي. فالعلم الكوني ينقسم إلى علم ظاهر وهو العلم السببي وعلم غير ظاهر وهو العلم الغيبي. وأما العلم الشرعي فهو ما قام عليه الدليل كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وبهذا يكون العلم الشرعي الصحيح هو ما قام عليه الدليل من كتاب الله عز وجل أو سنة نبيه ﷺ أو الإجماع، والعلم الشرعي الغير صحيح هو ما لم يقم عليه الدليل أو خالفه أو خالف الإجماع، ومن ذلك كل البدع والمحدثات كما بين ذلك النبي ﷺ في حديثه: إِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ (صحيحه الألباني في وجوب الأخذ بحديث الآحاد). وينقسم العلم الشرعي

إلى علم فطري وعلم ديني.

والعلم بكل أقسامه إما علم نافع وإما علم غير نافع بحسب حال صاحبه (أي حامله). فالعلم النافع هو العلم الذي يورث صاحبه خشية الله والعمل الصالح وإن لم يكن علماً شرعياً، والعلم الغير نافع هو العلم الذي لا يورث صاحبه خشية الله ولا العمل الصالح وإن كان علماً شرعياً. ولكن العلم الشرعي الصحيح هو من أعظم أسباب الهداية إلى معرفة الله وحقه وحق عباده علينا المعرفة التي تورث خشية الله والعمل الصالح ولهذا يأتي لفظ العلم بالإطلاق على العلم الشرعي الصحيح. وقد قال تعالى: **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾** فاطر. وقد جاء سياق الآية في التدبر في آيات الله الكونية كالسماوات ونزول المطر وتنوع الجبال والناس والدواب والثمار فدل ذلك على أن العبرة ليست بنوع العلم فقط ولكن العبرة بالخشية والتقوى والعمل الصالح مع الإقرار بأن هذا الكون هو من صنع العزيز العليم الذي هو على كل شيء قدير. ولهذا فقد جاء في تفسير ابن كثير عن معنى ذلك عن ابن عباس قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير، وعن ابن مسعود أنه قال: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية. وقد كان النبي ﷺ يرغب في العلوم النافعة بالعموم وأمر أصحابه بالدعاء فقال: **سَلُوا اللَّهَ عِلْماً نَافِعاً، وَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ** (صححه الألباني في السلسلة). وكان النبي ﷺ يدعو بذلك فقال: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْماً نَافِعاً وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ** (صحيح ابن حبان). وقال النبي ﷺ: **مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ** (صحيح مسلم). وهذا لا يكون إلا للعلم الذي يورث خشية الله والعمل الصالح.

ومن الأمثلة على العلم النافع هو العلم الشرعي الذي يورث صاحبه خشية الله فيعمل به ليكون حجة له يوم القيامة، ومن العلم النافع أيضاً علم التسيير للاستدلال بالنجوم الثابتة في السماء الذي يورث صاحبه خشية الله والتدبر في آياته الكونية ومعرفة عظمة الخالق سبحانه وتعالى. ومن الأمثلة على

العلم الغير النافع هو العلم الشرعي الذي لا يورث صاحبه خشية الله فلا يعمل به ويكون حجة عليه يوم القيامة، ومن العلم الغير نافع أيضا علم السحر الذي لا يورث إلا الكفر بالله والشرك به.

وأما الميزان فالمراد به العدل، وفي اللغة هو الإنصاف، والإنتصاف، والإعتدال، والتوسط، والإستقامة، والتسوية في الحقوق، ومنه الحساب ولهذا سماه الخوارزمي الجبر والمقابلة. ولهذا يكون المراد بالميزان بالنسبة للمعرفة هو العمل بعد المعرفة. ويقام الميزان بأداء الحقوق وبموافقة العمل للمعرفة، وبخس الميزان ويطغى عليه بإضاعة الحقوق وبخالفه العمل للمعرفة. وأقسام الميزان كأقسام العلم، ويمكن تقسيمه إلى ميزان كوني وميزان شرعي. فالميزان الكوني ينقسم إلى الميزان السببي والميزان الغيبي. وأما الميزان الشرعي فهو ينقسم إلى الميزان الفطري والميزان الديني.

والميزان الشرعي تابع للعلم الشرعي وهو ما قام عليه الدليل. ويقام الميزان الشرعي بالحكم بالحق وإتباعه والعمل به، والحق هو العلم الشرعي الصحيح وهذا يكون بأداء حق الله بإخلاص مع أداء حق الناس بالقسط وهذا ما كلفنا الله به بحسب القدرة. وأما الميزان الكوني فقد تكفل به الله ووضعه جل جلاله في يده على صورة مخلوق لتدبير الكون بالقسط أي العدل الظاهر. والله جل في علاه يضع الميزان الشرعي بعد الصراط في صورة مخلوق لحساب المكلفين من الجن والإنس. والله قائم على الميزان الكوني بالقسط وسيقوم على الميزان الشرعي بالقسط يوم الحساب، وهذا لحكمته وتمام عدله سبحانه ومن ذلك ليكون عدله نافذا في الميزان الشرعي كما في الميزان الكوني.

وعلى ما تقدم، فإن كان المراد المعرفة قيل العلم وإن كان المراد العمل بعد المعرفة قيل الميزان. وفيما يأتي بيان أقسام العلم والميزان واقتصرت التسمية على الميزان فقط لتشمل المعرفة والعمل معا. ولكن نفس التقسيم والشرح ينطبق على العلم أيضا.

1.11 أقسام الميزان الكوني

1.11.1 الميزان السبيي

فالقسم الأول هو الميزان السبيي أو العلم السبيي وهو علم ظاهر يدرك بالعقل والفطرة وما من الله به على خلقه من حواس كالبصر والسمع والاحساس. فهذا الميزان فيه حقيقة الأشياء ومسمياتها وطريق الوصول إليها ومسبباتها ولهذا كان مفتاح هذا العلم هو علم الحساب. والمخلوقات تتفاوت في المعرفة بهذا الميزان كل بحسب حاله ومقامه ولكن الله جل جلاله أختص الإنسان وفضله على سائر الخلق بأن جعل له عقلا يدرك به من الأسباب وحقيقتها ومسمياتها ما لا يمكن لغيره من المخلوقات. وهذا لأن الله جل جلاله أراد بحكمته أن يجعله خليفة في الأرض فخلق على صورته وجعل له من العقل والذكاء ما لم يعطي غيره. وهذا ما فضل الله جل جلاله به آدم على الملائكة وهو تفضيل في المعرفة السببية فأمرهم بالسجود له بسجود التحية والإحترام وليظهر فضله على سائر الخلق وهذا لحكمته سبحانه وعلمه كما في قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۚ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ البقرة.

فأما الملائكة فاعترفوا بهذا الفضل وبأنهم لا علم لهم إلا ما علمه الله لهم ولكن هذا النقص في العلم السبيي لم يمنعهم من الطاعة والإنقياد لأمر الله جل جلاله. وأما إبليس فقد حسد آدم في الصورة

التي خلق بها وعلى ما منَّ الله به عليه من العلم والقدرة المعرفية التي استحق بها هذا الثناء والتقدير. ولهذا فما كان للشيطان إلا أن يقول مستكبرا أنه خيرا منه خلق من نار وآدم من طين حسدا منه وكفرا. وهذا فيه جهل ابليس حيث أنه نسب الفضل لمجرد نوع مادة الخلق والقوة الطبيعية لا للعلم والقدرة المعرفية التي منَّ الله بها على آدم عليه السلام. فما كان له إلا أن يسعى لإضلاله وإخراجه من الجنة حسدا منه على هذه الفضائل ولو كان ذلك على حساب هلاكه وسوء مثاله. وهذا أيضا فيه نقص العقل وسوء الفكر نسأل الله السلامة والعافية. ولم يكتفي بذلك بل أخذ العهد على نفسه لإغواء وإضلال كل ذرية بني آدم كما حذرنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم.

وبالمعرفة بهذا الميزان السببي لا زالت تتقدم الحضارات الإنسانية وتتطور في الأخذ بالأسباب لإنجاز ما لم يكن ممكا لما سبق من الأمم من التكنولوجيا وشتى العلوم كالفيزياء والكيمياء والطب، والذكاء الاصطناعي وغيرها من العلوم الأخرى التي بها يمكن تحصيل المصالح الدينية والدنيوية. ومفتاح كل هذه العلوم هو علم الحساب حيث به تعرف مقادير الأشياء وتقديرها ولهذا فقد أمر الله تعالى بتعلمه من الآيات الكونية كما تقدم. ولهذا فإن الميزان السببي يحتاج إلى بحث وتمعن في آيات الله الكونية، وما يخفى منه على الإنسان أكثر مما يعلم لهذا قال جل جلاله في ذلك عندما سئل الرسول ﷺ عن حقيقة الروح: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ الإسراء. وهذا فيه أن الروح لا يمكن قياسها ولا عدها وهي ليست من الميزان السببي وإنما هي من الميزان الغيبي.

ولهذا فقد ذكر جل جلاله تقدم البشرية من الأقوام السابقة في هذا العلم السببي ولكن هذا التقدم كان سببا في زيادة الغفلة ظنا منهم أن العلم السببي يغني عن العلم الشرعي ولهذا قال تعالى: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ غافر.

وقال تعالى: يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ الروم. وجاء في تفسير السعدي بيان ذلك أن هؤلاء الذين لا يعلمون أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها. وإنما يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فينظرون إلى الأسباب ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها. (وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها فعملت لها وسعت وأقبلت بها وأدبرت وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها ولا النار تخافها وتخشأها ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة عن الآخرة. ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الأبواب. وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به وبرزوا وأعجبوا بعقولهم ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم وأشدهم غفلة عن آخرتهم وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رآهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون وفي ضلالهم يعمهون وفي باطلهم يترددون نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون. ثم نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها و[ما] حرموا من العقل العالي فعرفوا أن الأمر لله والحكم له في عباده وإن هو إلا توفيقه وخذلانه نخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان حتى يصلوا إليه، ويحلوا بساحته [وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه لأثمرت الرُّقِّيَّ العالي والحياة الطيبة، ولكنها لما بني كثير منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير] [1].

وهذا فيه البيان الكافي في أن الطريق الواضح والسليم للرقى بالحضارة بما يرضي الله لا يكون إلا

بالأخذ بالعلم الشرعي مع العلم السببي والتوجه إلى الله بالتوحيد والإخلاص والتقوى والعمل الصالح. وهذا ما يجب على الإنسان أن يعمل به ويعمل على تحقيقه ويتوكل على الله في ذلك كله. ويقول الشيخ ابن باز رحمه الله: لا شك أن الدراسة للعلوم الدنيوية أمرٌ مطلوبٌ، والله يقول سبحانه: وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ [الأنفال:60]، فالمسلمون بحاجة إلى العلوم الدنيوية حتى يستعينوا بها على طاعة الله، وعلى الاستغناء عما في أيدي الناس، وعلى جهاد أعداء الله، مع كون المسلمين يتعلَّون الجيولوجيا والهندسة والطب وغير ذلك مما يُعينهم، وكذلك ما يَخْتَرعون في القوة التي يُجَاهِد بها الأعداء؛ كل ما يُعينهم على جهاد الأعداء وإِتِّقاء شرِّ الأعداء ويغنيهم عن الأعداء فهو أمرٌ مطلوبٌ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ [النساء:71]، وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ [الأنفال:60]. فلاشتغال بالعلوم الدنيوية التي تنفع المسلمين إن كان لله؛ أُجِرَ عليها، مع فائدتها العظيمة، وإن كان يتعلَّمها للدنيا ليستفيد في دنياه فهذا مباحٌ ولا يضرُّه ذلك. لكن العلوم الدينية أهم، فليأخذ منها بنصيبٍ، ويجتهد في تعلم دينه، والتَّفَقُّه في دينه، ثم مع ذلك يتعلم ما ينفعه في دنياه إذا استطاع ذلك، وإذا جمع بين الأمرين فهو خيرٌ إلى خيرٍ، يقول النبي ﷺ: مَنْ يرد الله به خيراً يُفْقِهه في الدين، فإذا تَفَقَّه في دينه واستفاد مع ذلك في دنياه طباً أو صنعةً أخرى تنفعه أو أشياء مما ينفع العبد في هذه الدنيا؛ فذلك خيرٌ إلى خيرٍ [٠]. فتعلم العلوم الدنيوية أمرٌ مفيدٌ ونافعٌ، بشرط ألا يشغل عن علم الآخرة وعمّا ينفعه في الآخرة، فإن جمع بينهما فقد جمع خيراً إلى خيرٍ، وإن صلحت نيته في علوم الدنيا كانت عبادةً، وإذا تعلَّمها للدنيا فليس له ولا عليه، تعلم شيئاً مباحاً، لا حرج عليه، لكن متى صلحت نيته وأراد بهذا نفع المسلمين وتقويتهم ضدَّ عدوهم؛ جمع الله له الخيرين: الأجر، ومع ذلك النَّفْعُ بهذا المُتَعَلِّم (فتاوى الدروس، ما حكم وأهمية دراسة العلوم الدنيوية؟)•

ومن الأمثلة على تقدم الأمم السابقة في العلم السببي (ولو بالنسبة لقريش والعرب) والذي كان

سببا لتكبرها وتجبرها على أمر الله الشرعي وكفرها بالأنبياء والرسل هم عاد قوم هود عليه السلام حيث قال تعالى فيهم: وَلَقَدْ مَكَّاهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّاهُمْ فِيْمَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ الأحقاف. وهذا فيه أن الله جل جلاله يسر لعاد أسباب التمكين في الدنيا على نحو لم يمكن به غيرهم من العرب وكفار قريش كما جاء في عدة تفاسير. إلا أن هذا التمكين لم يكن سببا لهذايتهم رغم ما كان لهم من سمع وأبصار وقلوب ولكنهم كفروا واستهزؤا بأمر الله فغضب الله عليهم وأنزل عليهم عذابه. وهذا الأمر قد تكرر مع العديد من الأقوام السابقة كما في قوله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ الأنعام. وقوله تعالى: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَرُوا الْأَرْضَ وَعَمَّرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَّرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ الروم. فهذه هي سنة الله ودأبه في الأمم السابقين التي كذبت رسلها كما سيأتي بيان ذلك في حال الأمم مع الحق والميزان.

وأما الجن فلم يكن لهم التقدم في الحضارة وهذا لنقص عقولهم في إدراك العلم السببي. ولهذا كان كل الأنبياء والرسل من البشر فهم أكل عقلاً وأعلى فكراً وأعظم علماً. وهذا لأن الجن لا يدركون من الأسباب ما يمكن للبشر إدراكه ومن ذلك ما بينه جل جلاله في قوله عن الجن: فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ سبأ. حيث أنهم خدموا سليمان عليه السلام وهو ميت ظناً منهم أنه حيا. فلم يدركوا بعقولهم الناقصة أنه إذا لم يتحرك لفترة طويلة من الزمن فقد مات، وهذا

ما يستطيع إدراكه العاقل بل وحتى الطفل من البشر بسهولة. وقد جاء في تفسير السعدي بيان ذلك أن الجن كانوا قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب، ويطلعون على المكنونات، فأراد الله تعالى أن يُري العباد كذبهم في هذه الدعوى، فكثروا يعملون على عملهم، وقضى الله الموت على سليمان عليه السلام، وأتكا على عصاه، وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متكئ عليها، ظنوه حيا، وهابوه. فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه، فلم تزل ترعاها، حتى باد وسقط فسقط سليمان عليه السلام وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ) وهو العمل الشاق عليهم، فلو علموا الغيب، لعلوا موت سليمان، الذي هم أحرص شيء عليه، ليسلموا مما هم فيه [1].

وكل هذا فيه البيان من الله جل جلاله للناس أن الجن ليس فقط لا يعلمون الغيب بل هم أنقص عقلا وفكرا وإن كانوا أكثر قوة بطبيعة مادة خلقهم وهي النار. إلا أن الإنسان قادر على إدراك الأسباب التي تمكنه من التفوق على الجن في القوة بالعلم السببي، ومن ذلك قصة عرش بالقيس حيث قال تعالى مخبرا عن سليمان عليه السلام: قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَفْرِتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ^ط وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ^ج فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ^ط وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ النمل. وقد جاء في تفسير السعدي أن هذا الذي عنده علم من الكتاب هو رجل عالم صالح عند سليمان يقال له: "أصف بن برخيا" كان يعرف اسم الله الأعظم الذي إذا دعا الله به أجاب وإذا سأل به أعطى، بأن يدعو الله بذلك الاسم فيحضر حالا وأنه دعا الله فحضر. فالله أعلم هل هذا المراد، أم أن عنده علما من الكتاب يقتدر به على جلب البعيد وتحصيل الشديد [1].

والأقرب والله أعلى وأعلم أن آصف رحمه الله كان لديه هذا العلم السببي الذي به يقرب البعيد ولهذا فقد نسب جل جلاله فعله للعلم وهو العلم السببي ولم ينسب فعله لإيمانه أو دعائه كما هو الحال مع سائر الأنبياء مثل ينوس عليه السلام في قوله تعالى: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ الأنبياء.. وهذا العلم الذي كان لدى آصف يسمى علم التنقل الآتي للمحسوسات وإلى زماننا يبدو هذا العلم مستحيلا إدراكه إلا أنه يبقى علم سببي قد يدركه الإنسان إن علم أسبابه الموصلة إليه. ومن المعلوم أنه الإنسان في زماننا قد تمكن من تحقيق التنقل الآتي لغير المحسوسات كالصوت والصور وكافة البيانات الرقمية وغيرها من الأشياء المستخدمة في وسائل الاتصال التي كانت تبدو مستحيلة في الماضي القريب. فلك أن تتأمل في الأسباب الموصلة لهذا العلم العظيم الذي إن أدركه المسلمون لسبقوا كل الأمم والحضارات وكتب لهم التمكين إن أقاموا الحق والميزان مع الأخذ بهذا السبب العظيم.

ولقد رغب النبي ﷺ أصحابه في العلم السببي الذي به يقاتل الأعداء ومن ذلك علم الرمي لحاجة المسلمين له فقال: مَنْ عِلِمَ الرَّيِّ، ثُمَّ تَرَكَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا، أَوْ قَدْ عَصَى (صحيح مسلم، وصححه الألباني). ومن العلوم النافعة أيضا علم الفيزياء والكيمياء التي بها يعرف سلوك المواد وأسبابها للاستفادة منها والإنتنفاع بها كالحديد فقد قال تعالى عنه: وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ الْحَدِيدِ. ولقد بين ذلك السعدي رحمه الله في تفسيره فقال: وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والأواني وآلات الحَرْث، حتى إنه قل أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد [1]. ومن فضل الله ومنه على عباده أنه يفتح على من يشاء من هذا العلم السببي لعباده الصالحين القائمين بالميزان الشرعي فجعل لهم من أسباب التمكين ما يعجز عليه غيرهم وهذا لحكمته سبحانه، كما فتح على ذي القرنين وعلى داود وسليمان عليهما السلام وعلى آصف رحمه الله وعلى نبينا محمد ﷺ وعلى الصالحين من بعده من أصحابه رضي الله عنهم إلى زمان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ومن بعده هارون الرشيد رحمه الله وما سيأتي

في آخر الزمان في عهد المهدي المنتظر وعيسى عليه السلام، وسيأتي بيان وتفصيل كل ذلك في فصل الحكم الرشيد.

1.11.2 الميزان الغيبي

أما القسم الثاني فهو الميزان الغيبي أو العلم الغيبي وهو علم غير ظاهر لا يعلمه بالكلية ولا يملك مفاتيحه إلا الله جل جلاله كما في قوله تعالى: وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ الأنعام. وقد أخبر النبي ﷺ عن عدد هذه المفاتيح فقال: مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ ثَمَسٌ، ثُمَّ قَرَأَ: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) (صحيح البخاري). فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة كما في قوله تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ الحشر. ومن علم الغيب ما أذن الله بمعرفته ومنه ما لم يأذن سبحانه بمعرفته والدليل على هذا قوله تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ الجن. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي (صحيحه الألباني في السلسلة الصحيحة). وهذا فيه أن الله جل جلاله عنده علم لم يأذن بمعرفته لأحد من خلقه وهو العلم الذي استأثر به في علم الغيب عنده.

ومن الأمثلة على العلم الغيبي الذي لم يأذن الله بمعرفته كعلم موعد وقوع الساعة كما في قوله تعالى: يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۚ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ الأحزاب. ولقد صح عن النبي وهو أشرف الناس أنه قال لجبريل هو أشرف الملائكة عن الساعة عندما سأله: فتى

السَّاعَةُ؟ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ (صحيح البخاري). ولهذا فقد أمر جل جلاله نبيه ببيان هذا الأمر وهو العلم الغيبي الذي لم يأذن الله بمعرفته في قوله تعالى: قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِن أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ الأنعام. وقوله تعالى: قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۖ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ الأعراف.

وأما العلم الغيبي الذي أذن الله بمعرفته فنه ما علمه الله لأتبيه ورسله بالوحي ومن ذلك الكتب المنزلّة التي فيها من القصص الفائتة كما في قوله تعالى: تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ ۚ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ هود. وغير ذلك من الأخبار الفائتة كفترة مكوث أهل الكهف وعددهم، وقصص الأنبياء عليهم السلام. ومن ذلك أيضا الأحداث القادمة كما في قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ ۖ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ سبأ. وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي تحبّر بالأمر التي تحدث في المستقبل وفي آخر الزمان كنزول عيسى عليه السلام، وخروج الدابة، وإنهيار سد ذي القرنين، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الشمس من مغربها. فكل ما سبق فيه الدليل الواضح على أن الله سبحانه وتعالى أذن بمعرفة بعض العلم الغيبي لمن شاء من خلقه ولم يأذن بمعرفة بعضه الآخر. والعلم الغيبي الذي لم يأذن الله بمعرفته أكثر مما علم الخلق كما في قوله تعالى: وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ الإسراء.

وعلم الغيب الذي أذن الله بمعرفته هو علم نسبي يتفاوت الخلق بمعرفته كل بحسب ما أضره الله له وأذن له أن يعلم، فنه ما يدركه الإنسان دون غيره إن علم أسبابه، ومنه ما يدركه الجن دون الإنسان، ومنه ما يدركه الدواب دون الجن والإنس، ومنه ما تدركه الملائكة دون الجن والإنس وسائر الدواب

الأخرى. ومن ذلك أن الإنسان لا يرى الجن حيث قال تعالى: إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا الْأَعْرَافُ. فدل ذلك أن الجن لهم بعد لا يراه الإنسان وهو البعد المكاني الرابع والذي يَكْنِهم من رؤية الإنس ويحجب الإنس عن رؤيتهم لأن الإنس لا يرون إلا الأبعاد المكانية الثلاثة. ولقد تبث بالحساب أن من كان لديه القدرة على الوصول لأبعاد مكانية أعلى، كانت له القدرة على الظهور والتشكل واختراق ما دونها من الأبعاد عند طريق ذلك البعد. وهذا فيه أن الجن لهم القدرة على أن يتشكلون بصور مختلفة في الأبعاد الثلاثة واختراقها وذلك لوجودهم في البعد الرابع. ولهذا كان للشياطين القدرة في الدخول في أجساد الإنس واتخاذ مجرى الدم فيها طريقا كما صح عن النبي ﷺ: إن الشيطان يجري من ابنِ آدم مجرى الدم (صحيح أبي داود وصححه الألباني). ومن ذلك أن الشياطين من الجن لهم القدرة على مس الإنس بمشيئة الله وقد شبه الله تعالى أكل الربا بذلك فقال جل في علاه: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ الْبَقَرَةِ. والأدلة في تشكّل الشياطين من الجن كثيرة ومنها قصة أبو هريرة رضي الله مع الشيطان الذي أمسكه في صورة إنس في رمضان وكان يسرق الطعام من زكاة الفطر فقال له النبي ﷺ: تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قلت: لا، قال: ذاك الشيطان (صحيح البخاري). ومن ذلك أيضا الجنّازة فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: إِذَا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ، وَاحْتَمَلَهَا الرَّجُلُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً، قَالَتْ: قَدِّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ، قَالَتْ: يَا وَلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ (صحيح البخاري). ومن ذلك أيضا عذاب القبر فقد حجب عن الجن والإنس دون سائر الدواب ولهذا قال النبي ﷺ: فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إِلَّا الثَّقَلَيْنِ (أخرجه أبو داود وصححه الألباني). ومن ذلك أيضا أن الثقلين لا يسمعان الملائكة التي تنادي وقت الشروق والغروب كل يوم حيث قال النبي ﷺ: ما طلعت شمس قط إِلَّا بُعِثَ بِجَنَّتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ، يُسَمِعَانِ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا

الثَّقَلَيْنِ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنْ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مَّا كَثُرَ وَأَلْهِى، وَلَا آبَتْ شَمْسٌ قَطُّ إِلَّا بُعِثَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَيْنِ يُنَادِيَانِ، يُسَمِعَانِ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، أَلْهِمَّ أَعْطِ مَنْفَعًا خَلْفًا، وَأَعْطِ مَسْكًَا مَالًا تَلْفًا (صححه الألباني في السلسلة الصحيحة). ومن ذلك أيضا ذهاب الشمس للسجود تحت العرش كل يوم عند غروبها كما صح ذلك عن النبي ﷺ أنه قال: حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنُ، فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ، فَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنُ فَلَا يُؤْذَنُ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) [يس: 38] (صحيح البخاري). وكل هذا فيه أن الثقلين من الإنس والجن يحجب عنهم العديد من الأمور الغيبية.

ومن الأمور التي حجبت على الإنس والجن هي الروح فهي من العلم الذي لا يدركه لا الإنس ولا الجن ولا سائر الدواب الأخرى ولهذا فقد قال تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ الإسراء. ولكن يدركه من المخلوقات ملك الموت الموكل بالروح ولهذا قال تعالى: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ السجدة. وهذا فيه أن الملائكة يصلون إلى أرواح الجن والإنس وسائر ذوات الأرواح الأخرى فدل على قدرتهم للوصول إلى البعد الثالث والرابع وما فوقها من الأبعاد إلى ما شاء الله كل بحسب ما وكلهم الله به. ولهذا فإن للملائكة أيضا القدرة على التشكل في صور مختلفة في الأبعاد الثلاثة كما جاء ذلك في قوله تعالى عن جبريل عليه السلام: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ مريم. ومن ذلك أيضا أن جبريل عليه السلام كان يأتي النبي ﷺ في صورة رجل كما صح ذلك عن عمر بن الخطاب أنه قال: بينما نحن عند رسول الله ذات يوم، إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثيابِ، شديدُ سوادِ الشعرِ، لا يُرى عليه أثرُ السفرِ ولا يعرفه منا أحدٌ، حتى جلس إلى رسول الله، فأَسَدَ ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع

كفيه على نَفْخِهِ، ثم قال : يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ الحديث، إلى أن قال النبي ﷺ: يا عمرُ هل تدري من السائل قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلمُ قال: فإنه جبريلُ عليه السلام أتاكم ليعلمكم أمرَ دينكم (صحيح النسائي، صححه الألباني). وقد صحح عن أبو هريرة وأبو ذر أنهم رأوا هذا الرجل أي جبريل عليه السلام في صورة الصباحي دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه لحسن صورته. فسألو النبي ﷺ عن ذلك فقال لهم: إنه لجبريلُ عليه السلام نزل في صورة دحية الكلبي (صحيح النسائي، صححه الألباني). وكان جبريل يخاطب النبي من بعده فيكشف نفسه للنبي ﷺ فيراه ولا يراه غيره ومن ذلك ما صح عن عائشة أم المؤمنين أن النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قالَ لها: يا عائشةُ هذا جبريلُ يقرأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، فقالت: وعليه السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، رَأَى ما لا أرى، تُرِيدُ النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ (صحيح البخاري).

ومن الأمور الغيبية التي أذن الله لنبيه رؤيتها كالأمر الغيبية في المستقبل من البعد الزماني كما جاء في المرأة التي كانت تَلْقُطُ القَدَى مِنَ الْمَسْجِدِ فَتُوقَّتْ، فقال النبي ﷺ فيها: إِنِّي رَأَيْتُهَا فِي الْجَنَّةِ (حسنه المنذري في الترهيب والترهيب، وذكر بمعناه الألباني في السلسلة الضعيفة). ومن ذلك أيضاً أخبار النبي ﷺ برويته لبعض المشركين في النار ومن ذلك قوله ﷺ: رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ الْخُرَاعِيِّ يَجْرُ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السُّيُوبَ (صحيح مسلم).

ومن المعلوم أن العلم الغيبي لا يمكن إدراكه بالكلية بالعلم السببي وإنما يدرك منه فقط ما أذن الله بمعرفته فأظهره وجعل أسبابه وعلامته واضحة ومنظمة لكل عاقل لما في ذلك من مصالح دينية ودنيوية. فمثلاً يتنبأ بالمطر من الغيم الأسود، وبالإنجاب من علامات الحمل، وبنهاية الشهر بمنازل القمر، وبطلوع الزرع بعد نزول المطر، وبطريق السير من سير النجم، وغير ذلك من الأسباب التي جعلها الله دلالات واضحة على ما ستؤول إليه الأشياء والأحوال في المستقبل ولو على وجه التقريب. وهنا يأتي علم الحساب حيث به تحسب المقادير والأوزان والأحجام والأشكال والألوان والأصوات

والحركات والأمكنة والأزمنة وغير ذلك من الأشياء التي تعرف بها الأسباب والقوانين التي جعلها سبحانه في هذا الكون. وتتفاوت هذه الأمور في إمكانية حسابها فمنها ما يستحيل حسابه كالساعة سواء الكبرى أو الصغرى، ومنها ما يصعب حسابه كالملطر، ومنها ما يسهل ويعرف حسابه كأيام الشهر وساعات اليوم.

فكل هذه الأسباب مرجعها للعلم السببي ويدرك بها فقط جزء من العلم الغيبي الذي أذن الله به ومثال ذلك أن ذي القرنين بخبرته بأسباب الحديد علم أن مثال سده إلى الإنهيار لما علمه من تأكل الحديد كما في قوله تعالى: قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ^ط وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ الكهف. ومن ذلك أيضا علم التسيير الذي به يتنبأ بالمكان والزمان لمعرفة الطريق باستخدام مواضع النجوم كما في قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ^ق قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ الأنعام. وقد فسر السعدي ذلك أن الله جعل النجوم هداية للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم. منها: نجوم لا تزال ترى، ولا تسير عن محلها، ومنها: ما هو مستمر السير، يعرف سيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات. ودلت هذه الآية ونحوها، على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التسيير، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك [1]. وكل هذا فيه الدلالة الواضحة على قدرة الله جل جلاله وعظيم سلطانه، ولهذا فقد بين جل جلاله عظم مواقع النجوم فقال تعالى: فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ الواقعة. وقد جاء في تفسير الطبري عن قتادة ومجاهد أن مواقع النجوم هي منازلها ومساقطها، ولقد أول ذلك ابن عباس وعكرمة ومجاهد أن مواقع النجوم هي آيات القرآن نزلت متفرقة.²

² ولقد رجح الطبري القول الأول وهو أن مواقع النجوم هي منازلها ومساقطها في السماء، وهذا بخلاف القول الثاني أن

ولهذا فإن التنبأ بالمستقبل بالحساب لا يكون دائماً صحيحاً أو دقيقاً وبالأخص في الأمور التي يصعب حسابها، فأمر الله الواقع قد يحجب عن خلقه لحكمته ومثال ذلك قوم هود إذ ظنوا أن الغيم الأسود علامة للمطر كما هو معتاد ولكنه كان عذاب الله كما في قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رَجِئْ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْجَرِيمِينَ ﴿٢٥﴾ الأحقاف. لهذا فإن الوقائع المستقبلية يختلف حسابها بحسب ما أذن الله بعرفته ومعرفة أسبابه ومقاديره، فالتنبؤ لا تخضع لنمط معين ومعروف لا يمكن التنبأ بها إلا على وجه التقريب. وتزداد دقة الحساب مع الزيادة في معرفة هذه الأسباب والمقادير والتي تتأق بالبحث والتجربة والقياس والملاحظة وكل ذلك ممكن بالرجوع لآيات الله الكونية التي منها يتعلم الحساب.

ومن فضل الله ومنه أنه اختص بهذا العلم الغيبي من شاء من أنبياءه ورسله كل حسب حاله ومقامه. ومن ذلك ما فتح الله به على الخضر عليه السلام حيث علم من الأمور الغيبية ما لم يعلمه موسى عليه السلام. فكان الخضر عليه السلام أعلم من موسى في العلم الغيبي وكان موسى عليه السلام أعلم من الخضر في العلم الديني، وكل منهما كان نبياً ويأتيه الوحي من الله جل جلاله ولكن تفاوتوا في نوع العلم والفضل فموسى عليه السلام من أولى العزم من الرسل وكلم الله موسى تكليماً، فكل بحسب مقامه وما فضله الله به كما في قوله تعالى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ الْبَقَرَة.

وقد جاء في تفسير ابن كثير عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال أن موسى قال للخضر: جئتكَ لتعلمني مما علمت رشداً. قال: يكفيك التوراة بيدك، وأن الوحي يأتيك. يا موسى، إن لي علماً لا ينبغي لك

أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه.³ وقال بن عباس رضي الله عنه عن الخضر عليه السلام أنه كان رجلاً يعلم علم الغيب قد علم ذلك - فقال موسى: بلى. قال: (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً)؟ أي: إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم [هـ]. وجاء أيضاً ما يؤكد هذا المعنى في تفسير القرطبي: وعلمناه من لدنا علماً أي علم الغيب، وقال ابن عطية: كان علم الخضر علم معرفة بواطن قد أوحيت إليه، لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها؛ وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم [هـ]. وبينما الخضر وموسى عليهما السلام على السفينة، جاء عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَفَرَّقَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُّ: مَا عَلَيَّ وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ (صحيح البخاري).⁴

وكل هذا فيه أن الخضر علم ما ستؤول إليه الأمور بما علمه الله له من علم الغيب فعلم بذلك أن السفينة لو لم تعاب لأخذها الملك غضباً من المساكين، وأن الغلام لو لم يقتل فسوف يرهق أبواه المؤمنين طغياناً وكفراً، وأن الجدار لو لم يقام لسقط ولسرق كنز الغلامين اليتيمين أبناء الرجل الصالح. وما تصرف الخضر في هذه الأمور إلا لعلمه أن جميع هذه الأمور سيقع في علم الغيب كما أوحى الله إليه ذلك. ولكن من رحمة الله ومنه فقد أذن للخضر أن يصلح ذلك ولهذا فقد قال: وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ الكهف. وبهذا يتبين أن الخضر إنما أوتي هذا العلم العظيم لمصلحة الناس وليس للإضرار بهم أي للإصلاح الدنيوي وهذا فيه بيان الرشد والذي به تجلب المصالح الدينية والدنيوية معاً. وهذا ما أراد موسى تعلمه لهذا: قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا

³ وهذا فيه أن الخضر لديه من العلم الغيبي الذي لا يعلمه موسى وأن موسى لديه من العلم الديني الذي لا يعلمه الخضر.

⁴ وهذا فيه أن الإنسان لم يؤت من العلم إلا قليلاً كما تقدم في معنى قوله تعالى: وَاسْأَلُونَا عَنْ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ الإسراء.

عَلِمَتْ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ الكهف. وهذا فيه أن المصالح الدنيوية لا تجلب فقط بالعلم الديني الذي به يكون الإصلاح الديني بل إن ذلك يتطلب العلم الذي به يكون الإصلاح الدنيوي ولهذا فقد قال الخضر عليه السلام: قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِط بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ الكهف. وهذا فيه أن الخضر عليه السلام اختص بالإصلاح الدنيوي مع ما كان لديه من الإصلاح الديني بينما موسى عليه السلام اختص بالإصلاح الديني فقط. وفيه أيضا أنه بالعلم والخبرة تجلب المصالح الدنيوية وبالعلم الديني تجلب المصالح الدينية وسيأتي تفصيل ذلك في فصل الحكم الرشيد بإذن الله. وفي هذه القصة بيان تدبير الله جل جلاله فإنه يعلم سبحانه ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ف سبحانه الله الذي وسع كل شيء وأحاط به علما.

1.12 أقسام الميزان الشرعي

1.12.1 الميزان الفطري

فالميزان الفطري أو العلم الفطري فهو الذي يدرك بالفطرة السليمة الموافقة للعقل والتي فطر الله الناس عليها فيعرف به الخير من الشر والعدل من الظلم والإسلام من الكفر وغير ذلك من الأمور التي فطر الله الناس عليها والدليل على هذا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَيْهَمَةُ بِبَيْهَمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (فِطَرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) [الروم: 30] الآية (صحيح البخاري). ومن الأمور التي تخالف الميزان الفطري مثل الشرك (وبالأخص شرك الربوبية) والمجاهرة بالمعاصي والقتل والواط والسرقة والغش في الكيل فهي أمور تدرك بالفطرة السليمة الموافقة للعقل ويمكن

إثباتها لكل ذي عقل حتى بدون وحي. ومن ذلك أن أغلب الأمم مسلبة كانت أو كافرة اتفقت على فرض عقوبات على السرقة والغش على سبيل المثال لموافقة ذلك للفطرة السليمة.

ولهذا فإن مخالفة الميزان الفطري هي أشد جرماً من مخالفة الميزان الديني لأنها تعارض فطرة الله التي فطر الناس عليها والتي يمكن إدراكها حتى بدون وحي. ويعتبر الميزان الفطري أدنى مراتب العدل وفي معارضة هذا الميزان تعجيل سخط الله وعقوبته في الدنيا قبل الآخرة. والميزان الفطري ناقص وهو أدنى مرتبة من الميزان الديني حيث لا يمكن به إدراك العديد من الأمور الشرعية التي يحتاج إلى الوحي لإدراكها ومنها العقيدة والعبادات والأحكام الشرعية وغيرها من الأمور التي لا يمكن إدراكها بالفطرة السليمة فقط. ولهذا فقد أرسل الله جل جلاله الرسل وأنزل الكتب لبيان الميزان الديني والذي به يكتمل بيان الميزان الشرعي الذي أمر الله عباده به.

والميزان الفطري فيه الحجة لإدراك دين الإسلام لموافقته الفطرة كما سيأتي في بيان الميزان الديني. فقد جاء في الحديث القدسي عن الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاءً فاجتالهم الشياطين فخرمتم عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً (صحيح، مجموع الفتاوى لابن تيمية). ولهذا فإن الشياطين لا تسعى لإفساد الميزان الديني فقط وإنما تسعى لإفساد الميزان الفطري والديني معا كما في قوله تعالى عن إبليس: **وَلَا ضِلَّيْتُهُمْ وَلَا مَدِينَهُمْ وَلَا مَرَمَهُمْ فَلْيُبْتِئَنَّ أَذَانُ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَمَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ** وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ النساء. وقد جاء بيان ذلك في تفسير السعدي أن الله تعالى خلق عباده حنفاءً مفطورين على قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك والكفر والفسوق والعصيان. فإن كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد من توحيده ووجه معرفته. فافترسهم الشياطين في هذا الموضع اقتراس السبع

والذئاب للغنم المنفردة، نخسروا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخبيبة والصفقة الخاسرة. ولولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين لجرى عليهم ما جرى على هؤلاء المفتونين [1].

وقد جاء في تفسير ابن كثير أن ابن عباس قال: أتى علي زمان وأنا أقول: أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين، وأولاد المشركين مع المشركين. حتى حدثني فلان عن فلان: أن رسول الله ﷺ سئل عنهم فقال: "الله أعلم بما كانوا عاملين". فأمسكت عن قولي [هـ]. وهذا فيه أن ابن عباس أمسك عن قوله بفصل أولاد المسلمين عن أولاد المشركين في اللعب عندما علم قول الرسول ﷺ أن أولاد المشركين أيضا على الفطرة السمحة التي فطر الله الناس عليها. وهذا ما يوافق باقي الأحاديث والآيات كما تقدم.

وجاء أيضا في تفسير ابن كثير عن الفطرة أنه لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك [هـ]. وبهذا يعلم أن المكلفين قد تساوا في الميزان الفطري عند نشأتهم وهذا من عدل الله إذ أعطاهم سبحانه الفطرة السليمة الموافقة للعقل حتى يدركوا بذلك الميزان الديني. ولكن هذه الفطرة قد تفسد فيضل صاحبها عند البلوغ فإن شاء الله هداه وإن شاء أزاعه وكل ذلك بهداية الله الكونية. ونقل هذا المعنى القرطبي في تفسيره عن شيخه أبو العباس قوله: قال شيخنا في عبارته: إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للبرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودين الإسلام وهو الدين الحق. وقد دل على صحة هذا المعنى قوله: كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء يعني أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلقة سليما من الآفات، فلو ترك على أصل تلك الخلقة ل بقي كاملا بريئا من العيوب، لكن يتصرف فيه فيجدع أذنه ويوسم وجهه، فقطرأ عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل؛ وكذلك الإنسان، وهو تشبيه واقع ووجهه واضح [هـ]. فرحم الله علماء قرطبة من الأندلس

الأسبانية الذين بينوا هذا المعنى العظيم.

1.12.2 الميزان الديني

وأما القسم الثاني من الميزان الشرعي فهو الميزان الديني أو العلم الديني وهو موافق للميزان الفطري ومكمل له. ويدرك العلم الديني بالوحي بالمنزل من عند الله تبارك وتعالى على الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام. ولهذا فقد أثبت سبحانه موافقة دينه للفقرة التي فطر الناس عليها في قوله تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ الروم. وهذه فيه أن الميزان الديني الذي أنزله الله كان ولا يزال موافقا للفقرة ومكملا لها وهو دين الإسلام الذي أرسلت به كل الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ.

ومن الأمور التي تخالف الميزان الديني مثل الشرك (وبالأخص شرك الألوهية)، ومنع الزكاة، والحكم بغير ما أنزل الله كتحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله وغير ذلك من الأمور التي تخالف أمر الله ورسوله والتي يمكن إدراكها بالوحي المنزل وبالجملة الواضحة والبيئة إستنادا إلى جاء في كتاب الله عز وجل، أو صح في سنه نبيه الكريم، أو ثبت عن سبيل المؤمنين من السلف الصالحين.

ولهذا فقد أمر الله عز وجل جميع الأنبياء لدعوة المشركين لعبادة الله وحده لا شريك له (أي إلى توحيد الألوهية) وإقامة الحجة عليهم بالميزان الفطري أي بإيمانهم بأن الله هو من خلقهم وخلق السموات والأرض وهو مديبر الكون (أي بإيمانهم بتوحيد الربوبية) كما في قوله تعالى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ

﴿٣٨﴾ الزمر. وفي قوله تعالى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ الزخرف. فوصف الله جل جلاله هؤلاء بأن أكثرهم لا يعقلون في قوله: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ العنكبوت. ووصفهم جل جلاله أيضا بأنهم لا يعلمون في قوله: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لقمان. ؛ أولا لا يعقلون لمخالفتهم الميزان الفطري الموافق للعقل وثانيا لا يعلمون لمخالفتهم الميزان الديني وهو أمر الله المنزل من عنده.

ولهذا فقد بين ذلك إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر كما في قوله تعالى: إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ مريم. فحاجه أولا بالميزان الفطري الذي يقام بالحجة العقلية على بطلان عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، وحاجه ثانيا بالميزان الديني الذي يقام بالعلم الديني الصحيح المنزل من الله تبارك وتعالى وهو الوحي الموافق للفطرة والمكمل لها. وبين له الحكم الجزائي للشرك الموجب لعذاب الله فأقام عليه بذلك الحجة الكاملة والواضحة.

والعلم الديني هو ما قام عليه الدليل من كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ وهو الحق وهو الهدى الذي يهدي إلى الطريق المستقيم الذي يرضي الله جل جلاله ولهذا فقد قال النبي ﷺ: تركتُ فيكم أمرين؛ لن تضلُّوا ما إن تمسَّكتمُ بهما: كتابُ اللهِ وسُنَّتِي، ولن يتفرَّقا حتَّى يردَّا عليَّ الحوضَ (صحيح الترغيب). وقد ضرب النبي ﷺ مثلا عن نفسه في بيان العلم الديني الذي جاء به فقال: مثلُ ما بعثني اللهُ به مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قِيلَتِ الْمَاءُ، فَأُتْبِهَتِ الْكَلَاءُ وَالْعُشْبُ

الكثير، وكانت منها أجادِب، أَمَسَكَتِ الماءَ، فَفَعَلَ اللهُ بها النَّاسَ، فَشَرَبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمَسِّكُ مَاءً وَلَا تَنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلٌ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعِلِمَ وَعَلَمَ، وَمَثَلٌ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ (صحيح البخاري).

وخير هذا العلم هو القرآن كتاب الله فقد قال النبي ﷺ: إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلِمَهُ (صحيح البخاري). وقد كان ﷺ يعلم أصحابه القرآن ويدعوا لهم فعن عبد الله بن عباس قال: ضَمِنِي إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، وَفِي رِوَايَةٍ: اللَّهُمَّ عَلَيْهِ الْحِكْمَةُ (صحيح البخاري). وقد كان النبي ﷺ يرغب أصحابه في حفظ كتاب الله عز وجل فقال: لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلِمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ أَنَاءَ اللَّيْلِ، وَأَنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارُهُ، فَقَالَ: لَبِيتِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فَلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يَهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَبِيتِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فَلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ (صحيح البخاري).

ولقد كلف سبحانه عباده بالإجتهد بهذا العلم مع العمل بإيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله النساء يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط المائدة وعدم التقليد فيه وحجة لك أو عليك فقال جل جلال: وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ الأحزاب

والعلم الديني نافع وحجة لصاحبه مع العمل الموافق لأمر الله الشرعي، وغير نافع وحجة على صاحبه مع العمل المخالف لأمر الله الشرعي. ومن أعظم العمل المخالف لأمر الله للرياء كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال لأبي هريرة: أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسْعَرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ ابْنُ رَجَبٍ: (أَوَّلُ مَنْ تُسْعَرُ بِهِ النَّارُ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ الْعِبَادُ الْمُرَاؤُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَأَوَّلُهُمُ الْعَالِمُ وَالْمُجَاهِدُ وَالْمُتَصَدِّقُ لِلرِّيَاءِ، لِأَنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ) (كلمة الإخلاص). وقال ابن القيم: إِنَّ النَّارَ أَوَّلُ مَا تُسْعَرُ بِهَا الْعَالِمُ وَالْمُنْفِقُ وَالْمُقْتُولُ

في الجهاد إذا فعلوا ذلك ليقال (زاد المعاد). يقول الشيخ العثيمين رحمه الله في ذلك: لا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ؛ لِأَنَّ ثَمْرَةَ الْعِلْمِ الْعَمَلُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ صَارَ مِنْ أَوَّلٍ مَنْ تُسْعَرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ قِيلَ: وَعَالِمٌ بِعِلْمِهِ لَمْ يَعْمَلَنَّ مُعَذِّبٌ مِنْ قَبْلِ عِبَادِ الْوَتَنِ، فَإِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ أُورِثَ الْفَشْلَ فِي الْعِلْمِ وَعَدَمَ الْبَرَكَةِ وَنِسْيَانَ الْعِلْمِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِثْقَلَهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٣] الرعد [هـ].

والناس يتفاوتون في هذا العلم الشرعي، وجتى الصحابة رضوان الله عليهم وما ذكره القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿كَثَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ بَنِيَّ يَقِينٍ﴾ [٢٢] التل حيث قال: أي علمت ما لم تعلمه من الأمر فكان في هذا رد على من قال: إن الأنبياء تعلم الغيب [٥] وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم: عندي ما ليس عندك، إذا تحقق ذلك وتيقنه. هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع علمه لم يكن عنده علم بالاستئذان. وكان علم التيمم عند عمار وغيره، وغاب عن عمرو ابن مسعود حتى قالوا: لا يتيمم الجنب. وكان حكم الإذن في أن تنفر الحائض عند ابن عباس ولم يعلمه عمر ولا زيد بن ثابت. وكان غسل رأس المحرم معلوما عند ابن عباس وخفي عن المسور بن مخرمة. ومثله كثير فلا يطول به.

والعلم الديني هو العلم الذي يرفع قبل قيام الساعة كما ثبت عن عبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامًا، يُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ، وَيُنْزَلُ فِيهَا الْجَهْلُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الْهَرْجُ وَالْهَرْجُ: الْقَتْلُ (صحيح البخاري). وفي حديث آخر عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيُثَبَّتَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيُظْهَرَ الزِّنَا (صحيح البخاري). وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَيَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتُظْهَرَ

الْفِتْنُ، وَيَكْثُرُ الْحَرْجُ - وهو القَتْلُ الْقَتْلُ - حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضَ (صحيح البخاري). وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ وَإِمَّا قَالَ: مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيُظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيُظْهَرَ الزِّنَا، وَيَقِلَّ الرَّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لِلْمُتَمَسِّينَ امْرَأَةً الْقِيمُ الْوَاحِدُ (صحيح البخاري). وعن عبدالله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا (صحيح البخاري). وهذا فيه أن العلم الذي يرفع إنما هو العلم الديني وليس العلم السببي.

1.13 الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب

أرسل الله عز وجل رسله بالكتاب أولاً لبيان الحق وهو العلم الشرعي الصحيح ومن ثم لإقامة الميزان الشرعي بالقسط والعدل بين الناس حيث يقول جل جلاله: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ الحديد. فالكتاب هو الحق كما في قوله تعالى: وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ البقرة. والقسط في الكيل والوزن والعدل بين الناس من إقامة الميزان الشرعي وهو من الأمور التي أوصى الله تعالى بها. وقد دلنا سبحانه في هذه الآية على الحديد والأخذ به لنصرة الله جل جلاله ورسله ونصرة الحق الذي جاءوا به.

وقد جاء في تفسير الطبري: عن قتادة (الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) قال: الميزان: العدل [٠] وقال ابن

زيد، في قوله: (وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) بالحق؛ قال: الميزان: ما يعمل الناس، ويتعاطون عليه في الدنيا من معاشهم التي يأخذون ويعطون، يأخذون بميزان، ويعطون بميزان، يعرف ما يأخذ وما يعطي. قال: والكتاب فيه دين الناس الذي يعملون ويتركون، فالكتاب للآخرة، والميزان للدنيا. وقوله: (لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) يقول تعالى ذكره: ليعمل الناس بينهم بالعدل. وقوله: (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ) يقول تعالى ذكره: وأنزلنا لهم الحديد فيه بأس شديد، يقول: فيه قوة شديدة، ومنافع للناس، وذلك ما ينتفعون به منه عند لقاءهم العدو، وغير ذلك من منفعه [٥]. وقوله: (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ) يقول تعالى ذكره: أرسلنا رسلنا إلى خلقنا وأنزلنا معهم هذه الأشياء ليعدلوا بينهم، وليعلم حزب الله من ينصر دين الله ورسله بالغيب [هـ].

وجاء في تفسير ابن كثير: (وأنزلنا معهم الكتاب) وهو: النقل المصدق (والميزان) وهو: العدل قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما. وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة [٥]. ولهذا قال في هذه الآية: (ليقوم الناس بالقسط) أي: بالحق والعدل وهو: اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاءوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال: (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) [الأنعام: 115] أي: صدقا في الإخبار، وعدلا في الأوامر والنواهي ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوءوا غرف الجنات، والمنازل العاليات، والسرر المصفوفات: (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق) [الأعراف: 43]. وقوله: (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) أي: وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجّة عليه [٥]. ولهذا قال تعالى: (فيه بأس شديد) يعني: السلاح كالسيوف، والحراب، والسنان، والنصال، والدروع، ونحوها (ومنافع للناس) أي: في معاشهم كالسكة، والفأس، والقدوم، والمنشار، والإزميل، والمجرقة، والآلات التي يستعان بها في الحراثة، والحياكة، والطبخ، والخبز، وما لا قوام

للناس بدونه، وغير ذلك. [٠] وقوله: (وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) أي: من نيته في حمل السلاح نصرته الله ورسله، (إن الله قوي عزيز) أي: هو قوي عزيز، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليلو بعضهم ببعض [ه].

وفي هذا دليل على أن نصرته الله ورسله تكون بثلاثة أمور وهي: (1) إقامة الحق في نفوس الناس بالعلم الشرعي الصحيح، (2) إقامة الميزان الشرعي بين الناس بالعدل والقسط، (3) الأخذ بأسباب القوى كالحديد وما يلزم ذلك من علوم كالحساب والطب والفيزياء وغيرها من العلوم السببية التي تكمن للمسلمين من دحر الأعداء ونشر الحق ونصرته. وهذه الأمور الثلاثة هي أركان الحكم الرشيد التي بها يكون التمكن كما سيأتي بيان ذلك في فصل الحكم الرشيد.

فإنه جل جلاله أنزل كتابه لتحقيق هذه الغاية العظيمة وهي إقامة الحق والميزان الشرعي كما بين ذلك في قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ الشورى. فذكر الله الميزان إلحاقاً بالحق لأن الحق لا يكون إلا بالعلم الشرعي الصحيح وهو يقتضي الميزان الشرعي الذي لا يكون إلا بالعمل الصحيح الموافق للحق ومنه العدل والقسط كما أمر تعالى ومن ذلك بلا شك الحساب الصحيح. فإقامة الميزان الشرعي من الوصايا العشر من سورة الأنعام في قوله تعالى: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ الأنعام. فقرن الله عز وجل في هذه الآيات بين الكيل والميزان والعدل في القول والوفاء بالعهد. وفيه أن الميزان والكيل لا يكون إلا بالقسط وهو العدل الظاهر. وفيه أن العدل ذكر مع ذا القربى ولذلك يكون العدل بين الناس. وأيضاً من الوصايا التي ذكرها الله في سورة الإسراء في قوله تعالى: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ الإسراء. يقول السعدي في تفسيره: وهذا أمر بالعدل وإفاء

المكاييل والموازين بالقسط من غير بخس ولا نقص. ويؤخذ من عموم المعنى النبي عن كل غش في ثمن أو مثنى أو معقود عليه والأمر بالنصح والصدق في المعاملة [1]. ومن ذلك بلا الشك الحساب ولذلك وجب الوفاء والصدق فيه من غير غش ولا تضليل وإقامة الميزان فيه بالقسط كما في الكيل. وإقامة الحق تكون بالعلم الشرعي الصحيح بيانه والعمل به في النفوس وفيه صلاح الآخرة وإقامة الميزان تكون بالعدل فيما بين النفوس وفيه صلاح الدنيا. ولهذا فقد قال ابن القيم رحمه الله: «أصل كل خير في الدنيا والآخرة هو العلم والعدل، وأصل كل شر في الدنيا والآخرة الجهل والظلم [هـ] (إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان)».

1.14 تفاوت الرسل في العلم والفضل ودعوتهم واحدة

لا شك أن الأنبياء والرسل قد تفاوتوا في العلم والفضل والدليل قوله تعالى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ^ط وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ^ج وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ^ط وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ^ق وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَنَهَمَ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ^ج وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ البقرة. وقوله تعالى: وَرَبُّكَ أَعْلَمُ^ط بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ^ط وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ الإسراء. ومن أمثلة ذلك ما تقدم في التفاوت في العلم والفضل بين موسى عليه السلام والخضر عليه السلام.

ولكن جميع الرسل دعوتهم واحدة وهي الدعوة إلى إقامة الحق والميزان ومن أعظم ذلك الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما في قوله تعالى: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ

وَأَجْتَبُوا الطَّاغُوتَ^ط فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ^ج فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ النحل. وقوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ الأنبياء. وهذه الدعوة إنما هي دين الإسلام الذي أرسل الله به جميع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وهذا فيه أن الدعوة إلى الإسلام واحدة وهي دعوة إلى توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات والعبادات والأحكام الشرعية وغيرها من الأمور التي تدعو إليها الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما في قوله تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ^ج اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ الشورى.

وبهذا يتبين أنه لا يمكن التفريق أو التفضيل بين دعوة الرسل فدعوتهم واحدة كما قال جل جلاله: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ البقرة. وقال تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ لَهُ رُسُلُهُ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ^ج وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ البقرة.

ولهذا فقد نهى النبي ﷺ عن التفضيل بينه وبين الأنبياء على سبيل الاستنقاص أو على وجه التعصب أو التفريق أو التفاخر لما في ذلك بطر للحق ومن أعظم ذلك عدم إرجاع هذا الفضل لله تبارك وتعالى والذي بيده هذا التفضيل كما تقدم دليل ذلك، ومن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْزِضُ سِلْعَةً لَهُ أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا، كَرِهَهُ -أَوْ لَمْ يَرْضَهُ- فَقَالَ: لَا، وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبَشَرِ، قَالَ: فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، قَالَ: تَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبَشَرِ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهَرِنَا؟! قَالَ:

فَدَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا، وَقَالَ: فَلَنْ لَطَمَ وَجْهِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَمْ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟ قَالَ: قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبَشَرِ، وَأَنْتَ بَيْنَ أَظْهَرِنَا! قَالَ: فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى عَرَفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: ثُمَّ يَنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ فَإِذَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخَذَ بِالْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَحْسَبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَوْ بُعِثَ قَبْلِي، وَلَا أَقُولُ: إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ (صحيح مسلم، وصححه الألباني). وفي رواية أخرى: لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ فِي جَانِبِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ مَنْ صُعِقَ فَأَافَقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مَنْ اسْتَنْتَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ (صحيح أبي داود، وصححه الألباني).

فهذا النبي جاء لأنه لم يكن لبيان فضل الله على أنبياءه ورسله بما فضلهم الله به وإنما كان على سبيل الإستقصاء أو التعصب أو التفريق أو التفاخر أو غير ذلك من الأمور التي تعارض ما جئوا به كأما دعوتهم ليست بواحدة وهذا بخلاف التفضيل الذي فاضل الله به بين أنبياءه ورسله والذي فيه عدل الله تبارك وتعالى حيث اثبت سبحانه التفاوت بينهم في العلم والفضل ونفى التفريق بينهم في الدعوة. وبهذا يكون المعنى الصحيح لقوله ﷺ (لا تفضلوا بين أنبياء الله) أي لا تفضلوا بين أنبياء الله تفضيلاً يخالف التفضيل الذي فاضلهم الله به. وكذلك يقال بين نبينا ﷺ وبين موسى عليه السلام أو بين نبينا ﷺ وبين يونس عليه السلام. والله أعلى وأعلم.

1.15 الإصلاح وأنواعه

قد تقدم معنا تفاوت الأنبياء في العلم والفضل ولكن دعوتهم واحدة وهي دعوة إلى إقامة الحق والميزان ومن ذلك عبادة الله وحده لا شريك له. وهذه الدعوة تحتاج إلى إصلاح الناس وهذا الإصلاح يكون بالعلم النافع والعمل الصالح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا الإصلاح يكون إما إصلاح ديني أو إصلاح دنيوي أو كلاهما ومثال ذلك قصة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام. فالخضر عليه السلام اختصه الله بعلم الغيب للإصلاح الدنيوي وأما موسى عليه السلام فاختصه الله بالعلم الديني للإصلاح الديني. فكان للخضر الرشد والذي فيه الإصلاح الديني والدنيوي معا وكان لموسى الحكمة التي فيها الإصلاح الديني فقط. بينما فضل الله جل جلاله موسى عليه السلام في الفضل والعلم لما كان معه من العلم والحكمة في أمر الله الشرعي.

فالأنبياء جاءوا بالحق والميزان لحكمة الله عز وجل ومن ذلك الإصلاح الديني والدنيوي. ولكن أغلب الرسل اختصهم الله جل جلاله للإصلاح الديني لأن الإصلاح الديني فيه صلاح العباد والذي به تدرك مصالح الدنيا والآخرة ومن ذلك الصدق والأمانة وغيرها من الخصال التي توافق الفطرة والدين وتعود بالنفع الديني والدنيوي. إلا أن العديد من المنافع الدنيوية الأخرى لا تدرك بالعلم الديني فقط وإنما تدرك بالعلم السببي كعلم الطب والهندسة وغيرها من العلوم النافعة التي ينتفع بها الناس في أمور دنياهم وآخرتهم. وقد من الله سبحانه وتعالى على كل البشر فجعل لهم كل ما يحتاجونه من عقل وفطرة لإدراك هذا العلم السببي كما تقدم بيانه.

ومن ذلك أن الله اختص النبي ﷺ بالعلم الشرعي للإصلاح الديني وليس بالعلم السببي ومن ذلك ما رواه العديد من الصحابة رضوان الله عليهم في قصة تلقيح النخل، ومنها أن أنس بن مالك

قال: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَوْمٍ يَلْقَحُونَ، فَقَالَ: لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ قَالَ: نَخْرَجَ شَيْصًا، فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: مَا لِنَحْلِكُمْ؟ قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ (صحيح مسلم). وحديث طلحة بن عبيدالله حيث قال: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَوْمٍ عَلَى رُؤُوسِ النَّخْلِ، فَقَالَ: مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: يَلْقَحُونَهُ؛ يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَيَلْقَحُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا، قَالَ: فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ؛ فَإِنِّي إِنَّمَا طَنْتُ ظَنًّا، فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ شَيْئًا، نَحْذَرُوا بِهِ؛ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (صحيح مسلم). وحديث رافع بن خديج حيث قال: قَدِمَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ، يَقُولُونَ: يَلْقَحُونَ النَّخْلَ، فَقَالَ: مَا تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ، قَالَ: لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا، فَتَرَكُوهُ، فَفَضَّتْ -أَوْ فَتَقَصَّتْ- قَالَ: فَذَكَّرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ، نَحْذَرُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ (صحيح مسلم).

وكل ما تقدم فيه أن نبينا ﷺ أقر لهم بأنهم أعلم بأمور دنياهم أي بالعلم السبيحي لهذا فقد قال: (إن كان ينفعهم ذلك فَلْيَصْنَعُوهُ)، وفرق عليه ﷺ بين أمر الله جل جلاله الذي به يكون الإصلاح الديني وبين أمور الدنيا التي بها يكون الإصلاح الدنيوي. فجعل كلامه ﷺ في أمور الدنيا ظن وقال: (لَا تُؤَاخِذُونِي بِهِ) ولكن كلامه في أمر الله حق. وبين النبي ﷺ أنه بشر يخطئ ويصيب في أمور الدنيا كغيره من البشر ولهذا قال: (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ، نَحْذَرُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ). وهذا من تواضعه وصدقه ﷺ فهو الصادق الأمين الذي لا يكذب على الله ولا على الناس عليه الصلاة والسلام.

ولقد قال جل جلاله في كتابه: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ فَمَن كَانَ

يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ الكهف. وقد جاء في تفسير الطبري أن معنى ذلك: أي قل لهؤلاء المشركين يا محمد: إنما أنا بشر مثلكم من بني آدم لا علم لي إلا ما علمني الله وإن الله يوحى إلي أن معبودكم الذي يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، معبود واحد لا ثاني له، ولا شريك (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ) يقول: فمن يخاف ربه يوم لقائه، ويراقبه على معاصيه، ويرجو ثوابه على طاعته (فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا) يقول: فليخلص له العبادة، وليفرد له الربوبية [هـ].

1.16 الحكمة والرشاد

ذكر جل جلاله الحكمة والرشاد في مواضع مختلفة في كتابه الكريم. فالحكمة فيها الإصلاح الديني بالعلم الشرعي الصحيح الموافق للحق وفيها العمل الموافق للميزان الشرعي. وأما الرشاد فهو أعم ومنه الحكمة بالإضافة إلى العلم بالأسباب والأخذ بها، أي أن الرشاد يكون بمعنى الإصلاح الديني فقط أو الإصلاح الدنيوي فقط أو كلاهما معاً. فالرشاد الديني هي الهداية التي بها تجلب المصالح الشرعية، ويطلق الرشاد أيضاً على الأمور التي بها تجلب المصالح الدنيوية مثل العلم السبيي. فيكون بذلك الرشاد الكامل يشمل إقامة الحق بالعلم الشرعي الصحيح وإقامة الميزان بالعدل والعلم بالأسباب والأخذ بها. ولا يلزم أن الرشاد أفضل من الحكمة على وجه الإطلاق وإنما التفاضل يرجع للعلم والعمل بأمر الله الشرعي.

ج ولقد اختص جل جلاله من خلقه من يشاء بالحكمة فقال سبحانه وتعالى: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا^ق وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ البقرة. وقد ذكر السعدي

في تفسيره: لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن منَّ عليه وآتاه الله الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيرا كثيرا وأي خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتها! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوته العلمية والعملية فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصالة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في فطرهم وعقولهم، ومفصلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الأبواب الكاملة، والعقول التامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لفطرهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الأبواب، فلهذا قال تعالى: (وما يذكر إلا أولو الأبواب) [1].

ومن رحمة الله جل جلاله أنه جعل نبينا الكريم ﷺ معلما لأئمة هذه الحكمة فقال جل جلاله: كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ البقرة. وقد جاء في تفسير ابن كثير أنه تعالى يذكر عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبينات ويذكرهم، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق وذنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن والحكمة وهي السنة [هـ]. وقال السعدي أن معنى (وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ) أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه، (وَالْحِكْمَةَ) قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة، معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور

منازلها. فيكون - على هذا - تعليم السنة داخلا في تعليم الكتاب، لأن السنة، تبين القرآن وتفسره، وتعبّر عنه [1].

وأما الرشد قد يكون بمعنى الإصلاح الديني فقط وهو الهداية لإتباع الحق كقوله تعالى: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾. ومعنى يرشدون أي يهتدون فيحصل لهم الرشد الديني الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة كما جاء في تفسير السعدي. وأيضا قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ غافر. وجاء معنى هذا في تفسير الطبري أي: إن اتبعتموني فقبلتم مني ما أقول لكم، بينت لكم طريق الصواب الذي ترشدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه وذلك هو دين الله الذي ابتعث به موسى. وكل هذا من الإصلاح الديني والهداية. ويأتي الرشد أيضا بمعنى الإصلاح الدنيوي فقط كقوله تعالى: قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ الكهف، وهذا لأن موسى عليه السلام كان لديه الإصلاح الديني وهو أعلم من انخضر عليه السلام في ذلك. ويأتي الرشد أيضا بمعنى الإصلاح الديني والدنيوي معا كقوله تعالى: إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رُشْدًا ﴿١٠﴾ يونس، وهذا فيه أولا صلاح الدين حيث أن الله جل جلاله هداهم وزادهم هدى، وثانيا صلاح الدنيا حيث جعل سبحانه وتعالى لهم حفظ البدن مع طول الفترة المكوث في الكهف فرارا من قومهم. وكال الرشد لا يدركه الإنسان بسهولة لأنه يتطلب الجمع بين العلم الشرعي والعلم السببي معا وهذا الأمر يعطيه الله لمن شاء من عباده ولهذا فقد أمر جل جلاله نبيه الكريم ﷺ فقال: وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رُشْدًا ﴿٢٤﴾ الكهف. وقال السعدي في تفسيره: فأمره أن يدعو الله ويرجوه، ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشد. وحي

بعبد، تكون هذه حاله، ثم يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في طلب الهدى والرشد، أن يوفق لذلك، وأن تأتيه المعونة من ربه، وأن يسدده في جميع أموره [1].

والرشاد إن جمع مع الهداية يكون بمعنى الإصلاح الديني، وتكون الهداية بمعنى الحكمة والتي بها يكون الإصلاح الديني. ولهذا فإن نبينا الكريم ﷺ بدأ بالإصلاح الديني وسمى الخلفاء من بعده بالخلفاء الراشدين حتى يقوموا بالإصلاح الديني والديني معا حيث قال ﷺ: عَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ خُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي (صححه الألباني). وفي رواية أخرى: المهديين الراشدين (صحيح الجامع، صححه الألباني).

1.17 مكانة أهل العلم الشرعي

إن أهل العلم الشرعي هم القائمون بالإصلاح الديني وهم الذين يأمرون الناس بالقسط فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فهم أعلم الناس بالحق كما في قوله تعالى: وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ سَاءَ. وهذا لأن الحق يهدي إلى الطريق المستقيم كما ذكر تعالى في هذه الآية وفي قوله تعالى: وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ^ق وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ الحج. فأهل العلم الشرعي يبينون للناس الحق الذي جاءت به الرسل والأنبياء ساعين إلى الهداية الشرعية للناس وراجين لهم الهداية الكونية من الله جل جلاله. وقد جعل الله جل جلاله أهل العلم حجة على الناس لما معهم من الحق فكانوا بذلك هم ورثة الأنبياء في الأرض فقد قال تعالى: قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ^ج إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ الإسراء. وقوله تعالى: بَلْ هُوَ آيَاتٌ

يَبَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ العنكبوت.

ولهذا فقد رفع الله مكانة أهل الإيمان وأهل العلم في الدنيا والآخرة لما عرفوا من الحق كما في قوله تعالى: يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ المجادلة. ومن أعظم ذلك قوله تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ آل عمران. يقول السعدي في تفسيره: هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم [١]. وأما شهادة أهل العلم فلا أنهم هم المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصا في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبينوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلا، ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إشهادته تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تركيبتهم وتعديلهم وأنهم أمناء على ما استرعاهم عليه [1].

ومن أعظم المنكر قتل الأنبياء أو الذين يأمرون الناس بالقسط القائمين بالإصلاح الديني أو الإصلاح الدنيوي أو كلاهما. ولهذا فقد قال جل جلاله ذمه لأهل الكتاب ليبيان هذا الجرم العظيم في

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ آل عمران. وقد جاء في تفسير السعدي أن هؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية، أشد الناس جرماً وأي: جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيزهم، وتوقيعهم، ونصرهم وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضاً الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، فقابلوهم شر مقابلة، فاستحقوا بهذه الجنايات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح [1].

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس (صحيحه الألباني في السلسلة الصحيحة). وفي زيادة: وليأرزن الإسلام إلى ما بين المسجدين كما تأرزن الحية إلى حجرها (غريب أوردته ابن حجر العسقلاني في موافقة الخبر الخبر). وفي رواية: الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سُنِّي (قال الألباني ضعيف جداً).

عن أنس رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله متى تترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم السابقة وفي رواية في بني إسرائيل قالوا يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا قال الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رذلتكم (حسنه السخاوي والوادي وضعفه الألباني).

فلأمر بالمعروف واجب على كل مسلم إلى أن يشاء الله.

1.18 حال الأنبياء وأتباعهم مع الميزان الشرعي

ولما كان الأنبياء أعلم الناس بأمر الله وأحرصهم، فقد أقاموا الميزان الشرعي حق إقامته في حكمهم الرشيد بين الخلق. ومثال ذلك يوسف عليه السلام في قوله تعالى: قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ^ط إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ يوسف. وهذا فيه حرصه عليه السلام على إقامة الكيل والوزن بما يرضي الله وهذا من الإصلاح الذي أمر الله به حيث قال لإخوته عن الكيل: وَمَا جَهِزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَنْجٍ لَّكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْأَتَرُونَ أَتِي أَوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ يوسف.

فلا شك أن التفريط في الكيل والوزن من أعظم البلايا التي حذرنا الله عز وجل منها في كتابه الكريم فيقول تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيَلُّ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنَهُمْ يَخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يُظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ الْمُطَفِّفِينَ. فالظلم في الكيل والوزن من الإفساد العظيم ومن أسباب تعجيل العذاب في الدنيا قبل الآخرة، وفي قصة مدين مع نبيهم شعيبا العبرة الواضحة في ذلك. يقول تعالى على لسان نبيه شعيب محذرا قومه: وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ^ط قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ^ط فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ الأعراف. وفي موضع آخر من سورة الشعراء: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ الشعراء. وفي سورة هود: وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ^ج قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ^ط وَلَا تَتَّقُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ

وَأَنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ^ط وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ هود. وهذا فيه أن شعيبا عليه السلام دعا قومه لإقامة الحق أولا وهو التوحيد بإفراد الله بالعبادة وثانيا لإقامة الميزان الشرعي وهو الكيل والوزن بالقسط. وفيه أن يخس الناس أشياءهم والخسران والنقصان في الكيل والوزن من الظلم والفساد الموجب لسخط الله وعذابه العاجل.

ونبينا ﷺ كان من أحرص الناس في إقامة الكيل والميزان وحذر من الفساد في ذلك في العديد من المواضع منها ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِ الْكِيلِ وَالْمِيزَانِ: «إِنَّكُمْ قَدْ وَلِيتُمْ أَمْرَيْنِ هَلَكَتَ فِيهِمَا الْأُمَمُ السَّابِقَةُ قَبْلَكُمْ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ. وقد علم الصحابة والتابعين بأهمية إقامة الميزان والمكيل وأن الفساد فيهما من أسباب سخط الله ومنه ما ورد في كتاب الموطأ للإمام مالك عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، أَنَّهُ سَمِعَ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ، يَقُولُ إِذَا جِئْتَ أَرْضًا يُوفُونَ الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ فَاطْلُبِ الْمَقَامَ بِهَا وَإِذَا جِئْتَ أَرْضًا يُنْقِصُونَ الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ فَأَقْلِلِ الْمَقَامَ بِهَا.

1.19 حال الأمم مع الحق والميزان الشرعي

من عدل الله جل جلاله أن سنته في خلقه من الأمم السابقة واللاحقة ثابتة كما قال تعالى: سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ^ط وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ الأحراب، أي أن سنة الله لا تبدل ولا تغير كما جاء في تفسير ابن كثير. والتفاوت في العقوبة أو التمكين أو الهوان للأمم السابقة أو اللاحقة في الدنيا كل بحسب حاله وما يستحقه بما شاء الله جل جلاله بعدله أو رحمته أو حكمته. وحال الأمم

في الدنيا، سواء كانت كافرة أو مسلمة، يدور مع الحق والميزان في خمسة أحوال من الأشد عقوبة إلى الأهون عقوبة، أو من الأقل تمكينا إلى الأكثر تمكينا، أو من الأكثر هوانا إلى الأقل هونا:

- الدولة الكافرة الظالمة الهالكة
- الدولة المسلمة الظالمة
- الدولة الكافرة الظالمة
- الدولة الكافرة العادلة
- الدولة المؤمنة العادلة

وهذا الترتيب فيه تقديم الميزان على الحق في الدنيا بحسب ما قامت به الحجة. وهذا لأن الله جل جلاله قدم في الدنيا المصلحة العامة التي تكون بين الناس على المصلحة الشخصية التي تكون في النفس، فجعل سبحانه إقامة الميزان أي العدل بين الناس والإصلاح فيما بينهم في الدنيا مقدما على إقامة الحق في نفوس الناس. وهذا لأنه بالعدل في الدنيا تحفظ الأموال والأعراض والدماء، فلا تصلح الحياة إلا بالإصلاح الذي يكون بالعدل والدليل على هذا قوله تعالى: وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ هود. وقد جاء في تفسير الطبري أن معنى ذلك أن الله جل جلاله لم يكن ليهلكهم بشركهم بالله. وذلك قوله "بظلم" يعني: بشرك، (وأهلها مصلحون)، فيما بينهم لا يتظالمون، ولكنهم يتعاطون الحق (أي العدل) بينهم، وإن كانوا مشركين، إنما يهلكهم إذا تظالموا [هـ]. وأدنى هذا العدل هو العدل الموافق للفطرة أي الميزان الفطري. وجاء أيضا تفصيل ذلك في تفسير القرطبي أن معنى وأهلها مصلحون أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق؛ أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى يضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب بخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط؛ ودل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة

أصعب [هـ]. فكل هذا فيه أن مخالفة الميزان أهلك في الدنيا من مخالفة الحق، وأن مخالفة الميزان الفطري على وجه الخصوص بالظلم والفساد والمعاصي من أسباب تعجيل سنخ الله وعقابه في الدنيا قبل الآخرة.

ومن ذلك ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية: وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً؛ وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكَفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ [٠] وَذَلِكَ أَنَّ الْعَدْلَ نِظَامُ كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا أُقِيمَ أَمْرُ الدُّنْيَا بِعَدْلِ قَامَتْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِصَاحِبِهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَمَتَّى لَمْ تَقُمْ بِعَدْلٍ لَمْ تَقُمْ وَإِنْ كَانَ لِصَاحِبِهَا مِنَ الْإِيمَانِ مَا يُجْزَى بِهِ فِي الْآخِرَةِ (مجموع الفتاوى 28/146). وقد قال الشيخ الألباني رحمه الله تعالى في توضيح هذا المعنى: ذلك لأنَّ الظلم هو سبب خراب البلاد وهلاك العباد، فإذا كانت الأمة أو الدولة كافرة ولكنها تحكم بالعدل فيما بينها، هذا العدل الذي يعرفه الناس بفطرتهم، فإذا كانوا يحكمون بذلك فستقوم دولتهم وتستمر مدة طويلة، والتاريخ يحفل بهذا [هـ]. وقال الشيخ ابن باز رحمه الله في ذلك: مع الظلم والفساد في الأرض تعم العقوبات، ولا تستقيم الدولة على ذلك، وإنما تستقيم على العدل، دولة عادلة وإن كانت كافرة تستقيم معها أحوال رعيتهما، ودولة ظالمة وإن كانت مسلمة تختلُّ بها الأمور، ولا تنتظم بها الأمور، وقد تحصل الشَّحناء والعداوة والفتن، نسأل الله العافية [هـ].

ولقد بين رسولنا الكريم ﷺ خطر مخالفة الميزان الشرعي على الحاكم والمحكومين وهذا يشمل الميزان الفطري والميزان الديني. وجاء في حديث سعد بن تميم أنه قيل: يا رسول الله، ما للخليفة من بعدك؟ قال: مثل الذي لي، ما عدل في الحكم، وقسط في القسط، ورحم ذا الرحم، فمن فعل غير ذلك فليس مِنِّي ولستُ منه (صحيح، تخریج سنن أبي داود، وصحه الألباني). وهذا فيه أن الله أوجب على الحاكم العدل في الحكم وأن النبي ﷺ تبرأ من الحاكم الظالم. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ

- فَقَالَ «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتَلَيْتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فِشًا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أَخَذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُؤَنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مَنْعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يَمُطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بِعَصَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكَمْ أَيْمَنُهُمْ يَكْتَابِ اللَّهُ وَيَخْتِيرُوا مِمَّا أُنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْمِهِمْ يَلِينُهُمْ» (أخرجه ابن ماجه وصححه الألباني). فكل ما ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث هي من المخالفات الظالمة التي تخالف الميزان الشرعي، ولكن الرسول ﷺ قدم مخالفة الميزان الفطري على الميزان الديني. فالجاهرة بالمعاصي وإنقاص الكيل من الأعمال التي تعارض الميزان الفطري والذي يمكن إدراكه بالفطرة السليمة. وهذا فيه بيان خطورة مخالفة الفطرة للناس عموما مسلمين كانوا أو غير مسلمين. وفي تقديم هذا النوع بيان المبالغة في المعصية. وأما منع الزكاة، ومخالفة أمر الله ورسوله، والحكم بغير ما أنزل الله فهي تخالف الميزان الديني الذي يدرك بالوحي. وهذا فيه بيان خطورة مخالفة أمر الله وبالأخص للمسلمين. فكل هذه الأمور من أسباب البلاء العظيم ومنها الطاعون والأمراض والفقر والجوع وجور السلطان والهوان والفتن. وفيه الدليل على نبوته ﷺ فقد وقع ذلك كما أخبر بعد أن تهاون الكثير من المسلمين وغير المسلمين في أمر الميزان إلا من رحم الله. وبهذا يعرف أن الأمة المسلمة يتأهلها بمخالفة الميزان الشرعي من العقوبات في الدنيا ما لا يناله غيرها وذلك لما عرفت من الحق وبحسب ما قامت به من الظلم كما هو موضح في الجدول 1.1. وسيأتي بيان ذلك في حال الأمة المسلمة الظالمة.

المخالفة الظالمة	العقوبة	نوع الميزان	الأمة
ظهور الفاحشة والجهر بها	الطاعون والأوجاع	الميزان الفطري	مسلمة أو كافرة
نقص المكيال والميزان	السنين وشدة المؤنة وجور السلطان	الميزان الفطري	مسلمة أو كافرة
منع الزكاة	منع القطر من السماء	الميزان الديني	مسلمة
نقض عهد الله ورسوله	تسلط العدو وأخذه بعض ما في أيديهم	الميزان الديني	مسلمة
الحكم بغير كتاب الله	القتال والفتن بينهم	الميزان الديني	مسلمة

جدول 1.1: مخالفات الميزان الشرعي وعقوباتها بحسب ما أخبر النبي ﷺ

1.19.1 الدولة الكافرة الظالمة الهالكة

الدولة أو الأمة الكافرة الظالمة الهالكة هي التي أرسل الله لها رسولا على وجه الخصوص من الأمم السابقة فلم تقبل الحق بكفرها ولم تقم الميزان بظلمها رغم قيام الحجّة عليهم. وهي الأشد عقوبة في الدنيا سواء كان لها التمكن أو لم يكن، وهذا لأن الحجّة قامت عليها ولكن لم تقم الحق ولم تقم أدنى درجات العدل وهو الميزان الفطري فلم يقيموا العدل الذي به تحفظ الأموال (كالغش في الكيل مثل قوم شعيب)، أو الأعراض (كالزنى واللواط مثل قوم لوط)، أو الدماء (كالجور والقتل بغير حق مثل فرعون)، وغيرها من الأمور التي تخالف الميزان الفطري، والتي جاء الأنبياء بتحريمها.

وقد جرت سنة الله في الأزمان الخالية من الأمم الكافرة الظالمة الهالكة المكذبة لرسولها أن ينزل الله عليها عذابه العاجل بمجرد إخراجهم لرسولهم ظلما وعدوانا وكفرا كما قال تعالى: سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ الإسراء. وقد جاء في تفسير ابن كثير أنه أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسولنا وآذوه، يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب [هـ]. وقد

تنوع فيهم العقاب كل بحسب حاله كما قال تعالى: فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ العنكبوت. وكل هذا فيه العبرة والتذكير من الله جل جلاله لإتباع أمره والإنقياد له لكل من استخلفه الله ولهذا فقد قال تعالى: وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِّن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِّن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ يونس. وهذا فيه أن الله جل جلاله ناظر إلى أعمالنا وأعمال الأمم ومجازيها بعدله سبحانه وتعالى.

1.19.2 الدولة المسلمة الظالمة

الدولة أو الأمة المسلمة الظالمة هي التي عرفت الحق بقبولها للإسلام دينا لها ولم تقم الميزان بظلمها فلم يعمل غالب أفرادها بتعاليم وأوامر الإسلام. فعقوبتها في الدنيا تكون بالهوان وعدم التمكين وهذا لأنها عرفت الحق ولم تعمل به على الوجه المطلوب منها فلم تقم العدل الذي أمرها الله به وهو الميزان الشرعي، أي أن أفرادها، حكاما كانوا أو محكومين، لم يقيموا العدل الذي به تحفظ الأموال، أو الأعراس، أو الدماء، وغيرها من الأمور التي تخالف الميزان الفطري، بالإضافة إلى مخالفة الميزان الديني كمنع الزكاة، أو الحكم بغير ما أنزل الله، وغيرها من الأوامر الدينية التي تخالف الميزان الشرعي، وهذا يشمل الميزان الفطري والميزان الديني معاً.

فعدل الدولة المسلمة لا يكون فقط بموافقة الميزان الفطري كما هو الحال بالنسبة للدولة الكافرة، وإنما يكون عدل الدولة المسلمة بموافقة الميزان الشرعي، أي الميزان الفطري والديني معاً. وظلم الدولة المسلمة يكون بمخالفة الميزان الشرعي وهذا لما عرفت من الحق والدليل قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا

نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ آل عمران. وقد جاء في تفسير السعدي أن الله تعالى يخبر عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابهم، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقيادا لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم وهم يعرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعليهم، فيصيبنا من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد، كما قال تعالى إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ النور [1].

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ولهذا يروى أن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة (مجموع الفتاوى 28/63). والأصح أن يقال: "ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة"، وهذا لأن الظلم ينافي الغاية من الإيمان وكماله وهو بلا شك معصية الله ورسوله والدليل قوله تعالى: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ الحجرات. فالدولة المؤمنة هي التي تطيع الله ورسوله ومن ذلك الحكم بالعدل، فإن خالفت أمر الله فقد خالفت الغاية من الإيمان وتكون أدنى مرتبة في الدين وهي مرتبة الإسلام وليس مرتبة الإيمان. فالله جل جلاله لم يكتب للأمة المسلمة الظالمة التمكين بل كتب لهم الهوان، ووعد سبحانه الذين آمنوا بالتمكين كما سيأتي بيانه في الأمة المؤمنة العادلة. ولهذا فقد جاء أيضا عن شيخ الإسلام هذا التصحيح فقال في موضع آخر: وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً؛ وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكَفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ (مجموع الفتاوى 28/146).

والدولة المسلمة الظالمة ينالها من العقوبات والهوان ما لا ينال غيرها وهذا لأنها عرفت الحق أو

انتسبت إليه ولم تعمل به أو تسعى للعمل به فينالها كل العقوبات الخمسة التي ذكرها النبي ﷺ كما تقدم في الجدول 1.1. ومن ذلك الذل والهوان وتسلط العدو لنقض عهد الله ورسوله أي مخالفة أمر الله كالربا والعينة وترك الجهاد فعن ابن عمر، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ "إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ" (صححه الألباني). وهذا الذل يكون بتسلط الأعداء الكفار عليها وهذا لنقضها عهد الله وهو الميزان الشرعي الذي كلفهم الله به حبا في الدنيا، فهذا كله من أسباب الذل والهوان في الدنيا قبل الآخرة ومن أسباب تعجيل عقاب الله وتسلط الأعداء كما بين ذلك النبي ﷺ فعن ثوبان، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا". فَقَالَ قَاتِلُ وَمِنْ قَلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كُفْتَاءُ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ". فَقَالَ قَاتِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ" (صححه الألباني).

وكل هذا فيه أيضا أن الله يمكن الأمم الأخرى كالدولة الكافرة على المسلمين ولو كانوا ظالمين لهم وهذا لأن المسلمين خالفوا أمر الله الشرعي فيمسخهم من الظلم والهوان ما لا يمس غيرهم حتى يرجعوا إلى دينهم الذي كلفهم الله به. ولم يستثنني الرسول ﷺ من الأمم الأخرى وهذا بالعموم فتكون بذلك الأمة الكافرة الظالمة والأمة الكافرة العادلة مسلطة على الأمة المسلمة الظالمة. وهذا إنما لحكمة الله وعدله ورحمته فلو كان التمييز للأمة المسلمة الظالمة لطغت على أمر الله ولتجبرت ولتركت هذا الدين العظيم ظلما وعدوانا وغرورا ولكن حالها كحال الأمم السابقة التي فرحت بما كان لديها من العلم السببي ولتركت أمر الله الشرعي كما هي عادة البشر في من سبق من الذين خلوا من قبل. وهذا لا يكون لأن الله جل جلاله أراد لهذا الدين أن يبقى إلى قبل قيام الساعة. وسيأتي بيان ذلك في

دولة الحكم الرشيد وهي الدولة المؤمنة العادلة.

وقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على الدولة المسلمة الظالمة وبالأخص لما يترتب على ذلك من ظلم الذي يخالف الميزان الفطري والذي به يكون فساد المصالح العامة في الدنيا كسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الأعراض، والتي هي أشد ظلماً في الدنيا من الظلم الذي يكون بخالفة الميزان الديني كمنع الزكاة أو الحكم بغير ما أنزل الله من باب الهوى. وقد تقدم معنا أن الله جل جلاله قدم في الدنيا إقامة الميزان بين الناس بالعدل على إقامة الحق في نفوس الناس لتقديم المصلحة العامة على الخاصة. ولذلك فقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على ولاية الأمر المسلمين ولو كانوا ظالمين وعاصين لله ولرسوله ما أقاموا فينا الصلاة وكفى بنا أن نبغضهم في الله على ما عصوا به الله ورسوله كما جاء عن عوف بن مالك الأشجعي أن النبي ﷺ قال: خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ يُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ يُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وَلَائِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ، فَارْكُوهَا عَمَلَهُ، وَلَا تَزْعُورُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى، قَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَأَهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلْيَكْرَهُهُ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَنْزَعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ (صحيح مسلم، وصححه الألباني في تخریج کتاب السنة). للمزيد من التفاصيل، راجع فصل 7.2 مسألة الخروج على ولي أمر المسلمين.

ولهذا يجب على الدولة المسلمة الظالمة التي تنتسب إلى الإسلام الرجوع لأمر الله جل جلاله بتحكيم شرع الله والذي به تحفظ الدماء والأموال والأعراض بما يرضي الله جل جلاله. وقد قال الشيخ ابن باز رحمه الله: والواجب على كل دولة إسلامية أن تحذر نقمة الله، وأن تبادر بتحكيم شريعة الله، وأن تتقي الله في ذلك، كل دولة تنتسب للإسلام ثم تتساهل في هذا الأمر فقد أتت أمراً عظيماً، وإذا

كان تساهلها عن اعتقاد الجواز وإنه لا يجب عليها تحكيم شريعة الله فهذه دولة كافرة كفرًا أكبر، نعوذ بالله، إذا اعتقدت أنه لا يلزمها الحكم بشريعة الله، وأنه يجوز لها الحكم بهذه القوانين فهذا كفر أكبر، وردة عظمى [٠] ولا حول ولا قوة إلا بالله. نسأل الله السلامة والعافية (أحوال الحكم بغير ما أنزل الله، التعليقات على ندوات الجامع الكبير).

1.19.3 الدولة الكافرة الظالمة

الدولة أو الأمة الكافرة الظالمة هي التي لم تقبل الحق بكفرها ولم تقم الميزان بظلمها فيمسها من العقوبات في الدنيا بحسب ما قامت به الحجة عليهم سواء كان لها التمكن أو لم يكن ولكن الله جل جلاله يؤخذها في الدنيا بخالفة أدنى درجات العدل وهو الميزان الفطري. فعدل الدولة الكافرة يكون بموافقة الميزان الفطري، أي أن أفرادها، حكما كانوا أو محكومين، لم يقيموا العدل الذي به تحفظ الأموال (كالغش في الكيل)، أو الأعراض (كالزنى والواط)، أو الدماء (كالجور والقتل بغير حق)، وغيرها من الأمور التي تخالف الميزان الفطري.

وهذا يكون للأمم أو الدول الكافرة الظالمة اللاحقة التي لم يبعث لها رسول على وجه الخصوص فلها من العذاب في الدنيا بحسب ما قامت به عليهم الحجة ومن ذلك قوله تعالى: مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ الإسراء. فالله جل جلاله يؤاخذهم في الدنيا بخالفتهم للميزان الفطري ولهذا فقد عم رسولنا ﷺ العقوبة في المخالفات التي تخالف الفطرة السليمة كما تقدم معنا بيانه في الجدول 1.1 كالجاهرة بالمعاصي والغش في الكيل. ومن حكمة الله وعدله أن الله يسلط الأمم الأخرى أي الأمم الكافرة على الدولة المسلمة الظالمة حتى ترجع إلى دينها ولهذا فقد قال النبي ﷺ: "يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَىٰ عَلَيْهِمْ"

كَمَا تَدَّاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، أَلَى أَنْ قَالَ: وَلَيَزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةِ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ (صححه الألباني). وقد تقدم بيان ذلك في حال الدولة المسلمة الظالمة وكيف تتكالب عليها الأمم الأخرى.

1.19.4 الدولة الكافرة العادلة

الدولة أو الأمة الكافرة العادلة هي التي لم تقبل الحق بكفرها ولم تقم الميزان الشرعي بخالفة الميزان الديني ولكن أقامت أدنى درجات العدل وهو الميزان الفطري فتسلم بذلك في الدنيا من العقوبات بحسب ما وافقت به الفطرة وينزل عليها العذاب لخالفة الحق والميزان الديني بحسب ما قامت به الحجة عليهم. ولكن الله يجعل لها من التمكين والنصر بحسب ما قامت به من العدل. وهذا لأن عدل الدولة الكافرة يكون بموافقة الميزان الفطري، أي أن أفرادها، حكما كانوا أو محكومين، أقاموا العدل الذي به تحفظ الأموال، أو الأعراض، أو الدماء، وغيرها من الأمور التي توافق الميزان الفطري. وقد تقدم معنا ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية: وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكَفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ (مجموع الفتاوى 28/146).

وهذا ينطبق اليوم على حال كثير من دول الغرب التي على ما فيها من الكفر بدین الإسلام إلا أن القانون فيها نافذ على جميع مواطنها فتعطى الحقوق وتقام الحدود بدون تفریق على ضعيفهم وشريفهم وبما اتفقوا عليه في برلماناتهم التشريعية ولهذا فقد سلموا في غالبهم من جور سلاطينهم عليهم. فمن ذلك على سبيل المثال الأنظمة الاجتماعية التي فيها تجمع الأموال من العاملين والشركات كالضرائب فتعطى لفقرائهم ومساكينهم وتمول بها البنى التحتية من خدمات صحية وغيرها والتي فيها صلاح معيشتهم.

ومن ذلك أيضا فصل الأجهزة الرقابية والتشريعية عن الجهات التنفيذية لمراقبتها ومحاسبتها ومراجعتها وإنفاذ القانون على من يستغل السلطة لسرقة المال العام أو التلاعب به وإهداره. وكل هذا لما لهم من الأخلاق والمحاسن الإنسانية الموافقة للفطرة من الصدق في القول والأمانة في العمل وهذا لا يخفى على كل من عاش في بلادهم. وقد أدرك ذلك الصحابي عمرو بن العاص بعدما سمع المستورد بن شداد يقول أن النبي ﷺ قال: تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ. فَقَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لَيْتَنِي قُلْتُ ذَلِكَ، إِنَّ فِيهِمْ نَحِصَالًا أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لِأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمُسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسُهُ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ. وفي رواية أخرى: إِنَّهُمْ لِأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَجْبَرُ النَّاسِ عِنْدَ مُصِيبَةٍ، وَخَيْرُ النَّاسِ لِمُسَاكِينِهِمْ وَضُعَفَائِهِمْ (صحيح مسلم).

وكل هذا فيه أن الدولة الكافرة العادلة لها وعليها، فيدم كفرها ويحمد عدلها، ولا يرد عليها كل أمرها، بل يحمد ما فيها من العدل والإنصاف والمحاسن الإنسانية الموافقة للفطرة، ويذم ما فيها من كفر وفسق وعدوان على دين الله ورسله وهذا ما أوصانا به جل جلاله في كتابه العظيم فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ^ط وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ^ج اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ المائدة. وقال القرطبي في تفسيره: ودلت الآية أيضا على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه. وقال ابن كثير في تفسيره: وقوله: (ولا يجرمكم شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا) أي: لا يحملكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقا كان أو عدوا. للمزيد من التفاصيل، راجع فصل 7.1 مسألة العدل مع الكفار.

1.19.5 الدولة المؤمنة العادلة

الدولة أو الأمة المؤمنة العادلة هي التي عرفت الحق بقبولها للإسلام دينا لها وأقامت الميزان الشرعي التي أمرها الله به فعمل غالب أفرادها بتعاليم وأوامر الإسلام بإقامة الحق في أنفسهم وإقامة الميزان الشرعي فيما بينهم. فجزائها في الدنيا يكون بالتمكين على سائر الأمم الأخرى وهذا لأنها عرفت الحق وعملت به على الوجه المطلوب منها فأقامت العدل الذي أمرها الله به وهو الميزان الشرعي، أي أن أفرادها، حكاما كانوا أو محكومين، أقاموا العدل الذي به تحفظ الأموال، والأعراض، والدماء، وغيرها من الأمور التي توافق الميزان الفطري، بالإضافة إلى إقامة الميزان الديني كداء الزكاة، والوفاء بعهد الله ورسوله، والحكم بما أنزل الله، وغيرها من الأوامر الدينية التي توافق الميزان الشرعي، وهذا يشمل الميزان الفطري والميزان الديني معا.

فالدولة المؤمنة العادلة هي التي آمنت بالحق وهو العلم الشرعي الصحيح من كتاب الله وسنة نبيه الثابتة والصحيحة وأقامت الميزان الشرعي بالعدل والقسط إتباعا لأمر الله جل جلاله. وقد وعداها جل جلاله بالتمكين فقال: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ النور. وهذا فيه أن الله نعمهم بالإيمان لأنهم آمنوا بالحق وعملوا الصالحات الموافقة للميزان الشرعي الذي يرضي الله جل جلاله ومن أجل ذلك التوحيد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فوافقوا بذلك المعنى الحقيقي لكلمة التوحيد بإقامة الحق في أنفسهم وإقامة العدل فيما بينهم. وهذا بخلاف ما ينشر الآن أن التمكين يأتي بإقامة التوحيد في أنفس العباد فقط دون الإشارة إلى ما يلزم ذلك من إقامة العدل فيما بين العباد وهذا بخلاف الأدلة والبراهين الواضحة من كتاب الله جل جلاله.

والأمة المؤمنة العادلة منصوره بوعه الله عز وجل وبوعه الرسول ﷺ إلى آخر الزمان حتى يقبضهم الله جل جلاله قبل قيام الساعة فعن عقبه بن نافع أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لا تزال عصابة من أممي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك. فقال عبد الله: أجل، ثم بيعت الله ربحاً كرجح المسك مشها مس الحرير، فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يلقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة (صحيح مسلم).

والدولة المؤمنة العادلة هي دولة الحكم الرشيد وهي الدولة التي أسسها النبي ﷺ وبدأها بالإصلاح الديني أولاً ومن ثم قام عليها الخلفاء المهديين الراشدين من بعده بالإصلاح الديني والدنيوي معا حيث أقاموا الحق والميزان الشرعي مع الأخذ بالأسباب فكتب الله لهم التمكين وجعلهم ملوكا في الأرض حتى بلغ الإسلام الهند والصين شرقا وبلاد الأندلس وأروبا غربا. وسيأتي تفصيل ذلك في فصل الحكم الرشيد.

ولقد وضع النبي ﷺ لنا أسس هذه الدولة التي يحكم فيها بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه ويكون فيها الشورى، والرحمة، واللين، والحكمة، والعدل، والرشاد. ففي هذه الدولة يتساوى فيها المسلمون في الحقوق والواجبات الأساسية ومن أعظم ذلك حرمة الدم والمال والعرض وإن اختلفت ألوانهم وأشكالهم فقال ﷺ: يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمري على أسود، ولا أسود على أحمري، إلا بالتقوى، إلى أن قال: فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، (صحيح، تخریج المسند لشعيب، الصحيح المسند). ومن ذلك أيضا أن المسلمين يتساوون أيضا في الحدود وهذا من عدل الإسلام إذ تطبق الحدود على الشريف والضعيف على حد السواء بدون تفریق فقد صح عن النبي ﷺ قال: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها (صحيح مسلم).

وكل هذا فيه أن دولة الحكم الرشيد هي الدولة المؤمنة العادلة التي تقام بإقامة الحق في النفوس وإقامة الميزان بين النفوس مع الأخذ بالأسباب. وهي الدولة التي تحفظ فيها الدماء والأموال والأعراض بما يرضي الله جل جلاله، فيقام فيها الكيل بالقسط، وتؤدى فيها الزكاة، وتقام فيها الحدود، وتنبع فيها أوامر الله جل جلاله من الحكام والمحكومين، كل بما أوتى من الأمانة، وما فرض عليه من العهد والميثاق، فكل ذلك سيئل عليه الجميع يوم الحساب. وهي الدولة التي حكامها يختبرون في حكمهم مما أنزل الله جل جلاله حتى لا يكون حالهم كحال الدولة المسلمة الظالمة كما حذر من ذلك النبي ﷺ كما تقدم.

1.19.6 ملخص حال الأمم

بالتبع والاستقراء يتبين أن الله يقيم الأمم التي تحكم بالعدل الذي يوافق الفطرة وإن كانت كافرة. فإن في ذلك سلامة من عذاب الله في الدنيا كما تقدم. فإن كانت مؤمنة وتحكم بالعدل كانت حكما راشدا ووعدا الله بالتمكين في الدنيا والفوز في الآخرة. وإن كانت مسلمة ولا تحكم بالعدل فقد خالفت حكمة الله والغاية من إيمانها الذي يقتضي إقامة العدل والميزان ويصدق فيها قوله تعالى: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٤﴾ الحجرات. وهذا هو حال أغلب أمة الإسلام في يومنا هذا كما هو معروف. فتكون بذلك الأمة الكافرة التي تحكم بالعدل قائمة فوق الأمة المسلمة التي لا تحكم بالعدل. وأما الأمة المؤمنة التي تقيم الحق وأجله التوحيد وما يقتضيه ذلك من إقامة الميزان ومنه العدل بين الناس مع الأخذ بالأسباب تكون هي فوقهم جميعا كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث. وهذا فيه الحكمة البالغة من الله عز وجل ومنه أن الله لا يرضى لعباده الظلم. ولا يزال الذل والخوان هو حال

الأمة المسلمة الظالمة حتى تقيم في غالبها، حكاما ومحكومين، الميزان الشرعي بالعدل الذي أمر الله به. وقد قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ الرعد.

وبهذا يعلم أن الأمم إنما تقام بإقامة الميزان بالعدل بين الناس فإن تحقق ذلك سلست سخط الله وعذابه في الدنيا وإن كانت كافرة. فإن لم تقم الميزان بالعدل بين الناس، تكون بذلك قد جنت على نفسها عقاب الله العاجل في الدنيا من فقر وجوع وذل وجور السلطان وإن كانت مسلمة. وأما إن كانت مؤمنة وأقامت الحق مع إقامة الميزان والأخذ بالأسباب كما أمر الله تعالى كانت حكما راشدا وتحقق لها التمكين في الدنيا والفوز في الآخرة. وأما إقامة التوحيد دون إقامة الميزان وما يقتضيه من العدل بين الناس فهذا ينافي بحكمة الله وأمره الذي بينه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ. ولهذا وجب على المسلمين ودعاتهم الرجوع إلى أمر الله وعدم التهاون في ذلك بالعبادة بإقامة الحق وأجله التوحيد وإقامة الميزان وأجله العدل بين الناس على حد السواء، مع الأخذ بالأسباب حتى يكون لهم التمكين الذي وعد الله به. ولمعرفة الأسباب وفهمها وجب علينا العناية بعلم الحساب بحثا وتطبيقا سعيا لتحقيق هذه الغاية العظيمة التي أمرنا الله بها، والتي عليها يبني الحكم الرشيد.

والدولة المؤمنة العادلة لا تأتي بالعواطف والأوهام، إنما تكون عن علم وإخلاص في القول والعمل وصبر على أقدار الله ويقين بوعده الله عز وجل. وهذا يتطلب الجهاد في سبيل الله جهاد النفس وجهاد الغير سعيا لإقامة الحق والميزان الشرعي وليس لإبتغاء السلطة أو العلو في الأرض وإنما لنشر الحق والعدل الذي أمر الله به. وهذا لا يقوم به إلا من أخلص لله حقا وباع نفسه وماله لله عن صدق ورضي أن يدخل مع الله في هذه التجارة الربحة ولهذا فقد قال جل جلاله: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي

التَّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التوبة. وهذه التجارة مع الله لا يبتغاء مرضاته والسعي لبلوغ جنته التي وعد المتقين وللنجاة من عذابه وسخطه يوم الحساب. ولهذا يأتي بيان يوم الحساب قبل بيان الحكم الرشيد حتى يعلم الإنسان ما فيه نجاته في ذلك اليوم العظيم، وأن الغاية ليست الحكم الرشيد أو الخلافة الراشدة في حد ذاتها كما يتغنى بذلك الكثير من الواهمين، إنما الحكم الرشيد والخلافة الراشدة هي وسيلة لغاية عظيمة وهي إقامة الحق والميزان مع الأخذ بالأسباب كما بين جل جلاله ذلك في كتابه العظيم.

1.20 الحساب من صور الميزان والجهل به من الأمية

تقدم معنا أن الميزان يأتي بمعنى العدل، ولكن الميزان له صور مختلفة. فعلى سبيل المثال الكيل المعروف الذي به توزن الأشياء هو صورة من صور الميزان ولكنه ميزان حسي. وكذلك الحساب فهو أيضا صورة من صور الميزان ولكنه ميزان معنوي، أي أنه لا يلزم أن يكون في صورة حسية معينة ولكن قد يجرى الحساب كتابيا أو ذهنيا أو بإستخدام الآلة الحاسبة أو أجهزة الكمبيوتر أو بإستخدام مجموعة كبيرة من الأجهزة المعقدة. وهذا الحساب يتنوع ويتدرج من السهل والبسيط إلى الصعب والمعقد. والحساب حاله كحال الكيل يبني على الميزان والوزن الصحيح ويجب الوفاء به والصدق فيه فهذا من الإصلاح والعدل الذي أمر الله به والذي فطر الناس عليه كما تقدم بيانه في الميزان الشرعي بأقسامه. وعليه فإن الحساب لا يكون صحيحا إلا بالقسط والعدل كما في الكيل الوزن تماما. ومن رحمة الله أنه فطر الناس على هذا وجعل لهم كل ما يحتاجونه من عقل وسمع وبصر لفهم الحساب والعدد ولينونا عليه مصالحهم الدنيوية والدنيوية. ولهذا فإن الآيات الشرعية التي تأمر بالعدل في الكيل وإقامة الميزان

بالقسط فهي بلا شك تشمل الحساب وهو الميزان المعنوي كما هو الحال مع الكيل وهو الميزان الحسي. والغش في الحساب من مخالفة الميزان ومن الظلم والفساد الذي لا يرضى الله به ومن أسباب تعجيل سخط الله في الدنيا قبل الآخرة.

وبهذا يعلم أن الحساب الصحيح يكون سبيلا إلى الحكم بالعدل والحكم الرشيد. فإن وافق الحساب الميزان الفطري (أي الفطرة السليمة) كان ذلك نجاة من سخط الله وعذابه في العاجلة (أي في الدنيا). ومثال ذلك أن يكون حساب البائع حسابا صحيحا مع زبائنه بدون غش أو نقص. وإن وافق الحساب الميزان الديني كان ذلك نجاة من سخط الله وعذابه في الآخرة. ومثال ذلك حساب المواريث والزكاة الحساب الصحيح. وإن وافق الحساب الميزان الشرعي (أي الميزان الفطري والميزان الديني معا) كان ذلك نجاة من سخط الله وعذابه في الدنيا والآخرة معا. ومثال ذلك إخراج الزكاة صحيحة وكاملة من تجارة لا غش فيها ولا ظلم. وفي غالب الأحيان يكون الحساب الموافق للميزان الديني موافقا أيضا للميزان الفطري وهذا لأن الدين جاء موافقا للفطرة ومكملا لها. ولهذا كان الحساب الصحيح لإقامة الحق والميزان الشرعي من بنیان الحكم الرشيد. وعليه يكون علم الحساب من الدين بالضرورة وليس بخلاف ذلك إذ يتعذر إقامة الميزان حتى إقامته من دون حساب صحيح. وهو أيضا مفتاح العلوم السببية، إذ يتعذر معرفة الأسباب وفهمها من دون حساب صحيح.

ومن أعظم البلايا في زماننا هذا أن المسلمين قد أضاعوا هذا العلم العظيم ظنا منهم أنه ليس من الدين بعد أن كانوا روادا فيه ووضعو أسسه وقواعده في زمن هارون الرشيد فسبقوا بذلك كل الأمم الأخرى كما سيأتي. فاعتنت وتسابقت وتهافتت عليه الأمم الأخرى وكان سببا في نهوضها وإزدهارها بل وأيضا تسلطها على أمة الإسلام. فتضييع علم الحساب من الأمية التي جاء الإسلام بالحث على خلافها من طلب العلم ونشره وإقامة الحق والميزان. فالأمية لا تكون فقط بعدم القدرة على القراءة

والكتابة كما هو شائع، وإنما أيضا بعدم القدرة على الحساب. ومما يؤكد هذا الطرح قوله ﷺ عندما سأل عن عدد الأيام في الشهر فقال ﷺ: إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا. يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ، وَمَرَّةً ثَلَاثِينَ" (صحيح البخاري). فجعل ﷺ الجاهل يعلم الحساب في زمانه من الأمية.

ولهذا جاءت الشريعة بالحث أولا على القراءة ومن ثم الحساب. فكان أول ما أنزل الله "اقرأ" وفيه الحث لأمة الإسلام على تعلم القراءة والكتابة وطلب العلم ونشره. يقول تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ العلق. ومن ثم جاء الحث على التأمل في آيات الله الكونية في مواضع كثيرة ليس فقط لمجرد التفكير في خلق الله ولكن أيضا لتعلم العدد والحساب كما جاء في قوله تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾ يونس. ولهذا فإن كل إنسان لم يتعلم الحساب مع القراءة والكتابة يكون أميا كما بين ذلك النبي ﷺ. والله حث هذه الأمة الأمية في كتابه العظيم على العلم الذي يتأتى بالقراءة والكتابة حتى تقيم الحق وعلى تعلم العدد والحساب حتى تقيم الميزان الشرعي بالعدل والقسط.

1.21 الحساب الصحيح هو الميزان

والحساب الصحيح لا يقام إلا بالميزان فعن أبي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى خَيْرٍ فَجَاءَهُ بُتْرٌ جَنِيْبٌ فَقَالَ: «أَكُلْتُ ثَمْرَ خَيْرٍ هَكَذَا؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

إِنَّا لَنَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ وَالصَّاعَيْنِ بِالثَّلَاثِ فَقَالَ: «لَا تَفْعَلْ بَعِ الْجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ ثُمَّ ابْتَغِ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيًّا». وَقَالَ: «فِي الْمِيزَانِ مِثْلَ ذَلِكَ» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ). وهذا فيه حرص النبي ﷺ حيث انه من المعلوم أن من أخذ صاعا اضافيا لا يثبت قيمة البيع. فيكون من أخذ صاعين بدل صاع فقد اشترى بنصف قيمة ما باع، بينما من أخذ ثلاثة بدل اثنين فقد اشترى بثلاثي قيمة ما باع. وهذا من الظلم الذي لا يقع إلا خطأ أو جهلا أو غشا. فأخبر النبي ﷺ أن هذا بخلاف الميزان وهو الحساب الصحيح في البيع والشراء، بل ونهى عن ذلك وأمر بأخذ القيمة عند البيع ومن ثم الشراء حتى تثبت القيمة. وفيه أيضا أن الرسول ﷺ سمي الحساب الصحيح ميزانا في قوله "في الميزان مثل ذلك". وهذا فيه دليل على نبوته ﷺ فهو أُمِّي لا يحسب ولكن لا ينطق إلا بالحق كما أخبر ذلك الله عز وجل في كتابه العظيم: وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ النجم.

ولهذا فإن الحساب الصحيح يبنى على التقدير العددي والوزن وهو ما نعرفه اليوم بالتساوي (أي علامة = في الحساب). فقد سماه الخوارزمي رحمه الله تعالى بالجبر والمقابلة بحيث يبنى الحساب على التساوي بين المتغيرات لجبر ما اختل من الميزان، عليه يمكن حساب ما جهل منها. فقد قال ابن تيمية رحمه الله عن هذا: وأما حساب الفرائض ومعرفة أصول المسائل وتصحيحها والمناسخات وقسمة التركات، وهذا الثاني كله علم معقول يُعلم بالعقل، كسائر حساب المعاملات وغير ذلك من الأنواع التي يحتاج إليها الناس [٠] ثم قد ذكروا حساب المجهول الملقب بحساب الجبر والمقابلة في ذلك، وهو علم قديم [٠] أول من عرف أنه أدخله فيها محمد بن موسى الخوارزمي. وبعض الناس يذكر عن علي بن أبي طالب أنه تكلم فيه، وأنه تعلم ذلك من يهودي، وهذا كذب على علي (مجموع الفتاوى 9/214). ويقول ابن تيمية فيه أيضا: وكذلك كثير من متأخري أصحابنا يشتغلون وقت بطلانهم بعلم الفرائض والحساب والجبر والمقابلة والهندسة ونحو ذلك، لأن فيه تفريحا للنفس، وهو علم صحيح لا يدخل فيه غلط (مجموع

الفتاوى ج9/ص129). وكل هذا فيه اهتمام السلف بهذا العلم العظيم في أوقات فراغهم رغم إنشغالهم بالأمور العظيمة الأخرى في بيان الحق ورد البدع والشبهات التي عصفت في ذلك الزمن كعلم الكلام والفلسفة التي تخالف صريح كتاب الله جل جلاله وسنة نبيه ﷺ.

والناس يتفاوتون في قدراتهم الحسابية كل بحسب إجهاده وبما أودعه الله جل جلاله فيهم من إدراك وعقل. ولهذا فإن حساب الإنسان يكون بحسب إدراكه وعقله وتقديره. وهذا فيه أن الإنسان قد يخفى عليه العديد من الأمور وقد يتخلل حسابه النقص وبالأخص في الأمور التي يصعب حسابها. ولكن الله جعل الناس متوافقين في الحساب بفطرتهم. والله جل جلاله له كمال العدل في حسابه وهذا لأن تقديره تقدير كامل لا نقص فيه لأن الله هو العليم بكل شئ والقادر على كل شئ. وفي معرفة حساب الله العديد من الفوائد منها أن الله عدل وقائم بالقسط في الدنيا والآخرة، وفي الميزان الكوني والميزان الشرعي. وفي معرفة ذلك الإستعداد ليوم الحساب الذي فيه يحاسب الله المكلفين كما سيأتي بيانه في الفصل القادم. وفي هذه المعرفة أيضا الترغيب في إقامة الحق والميزان مع الأخذ بالأسباب والتي بها يمكن تحقيق الحكم الرشيد كما سيأتي بيانه في الفصل الذي يلي الفصل القادم.

حساب الله

2.1 مقدمة

هذه هي المقدمة للفصل الأول.

2.2 صفة العد والحساب

العد والإحصاء والحساب كلها من صفات الله جل جلاله، وهذا من كمال عدله سبحانه حتى يعطي لكي ذي حق حقه يوم الحساب. ولقد أثبت سبحانه في مواضع كثيرة في كتابه العظيم أنه سبحانه أحصى كل شئ عدداً، وأنه سبحانه سريع الحساب كما يليق بجلاله بدون تشبيه أو تكيف أو تعطيل أو تمثيل. ومن ذلك أن الله جل جلاله قدر المقادير كلها وعلها عدداً واحصائها وحسابها

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ
وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ
بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التوبة

وقد كان النبي يدعو الله بصفة سريع الحساب ومن ذلك عندما دعا على الأحزاب، فقال: اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، أَهْزِمِ الْأَحْزَابَ، أَهْزِمُهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ (صحيح البخاري)

(صحيح البخاري، صحيح مسلم)

يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتُمُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، فَقَامَ عُكَّاشَةُ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ، قَالَ: أَنْتَ مِنْهُمْ، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ، قَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ (صحيح مسلم).

جاءت امرأة إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا لَمَمٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيَنِي. قَالَ: إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيَكِ، وَإِنْ شِئْتَ فَاصْبِرِي، وَلَا حِسَابَ عَلَيْكِ. قَالَتْ: بَلْ أَصْبِرُ، وَلَا حِسَابَ عَلَيَّ (إسناده حسن، تخريج المسند لشعيب).

أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ أَيُّ الشَّهَدَاءِ أَفْضَلُ قَالَ: الَّذِينَ إِنْ يَلْقَوْا فِي الصِّفِّ لَا يَلْفِتُونَ وَجُوهَهُمْ حَتَّى يَقْتُلُوا، وَأُولَئِكَ يَنْطَلِقُونَ فِي الْعُرْفِ الْعُلَا مِنَ الْجَنَّةِ، وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ، وَإِذَا ضَحِكَ رَبُّكَ إِلَى عَبْدٍ فِي الدُّنْيَا فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ (صححه الألباني في صحيح الترغيب).

أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ كَانَ أَكَلَهَا كَتَبَتْ كَامِلَةً، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَكَلَهَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمَلَائِكَةِ: انظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَأَكَلُوا بِهِ مَا ضَيَّعَ مِنْ فَرِيضَتِهِ، وَالزَّكَاةُ مِثْلُ ذَلِكَ، ثُمَّ تَوَخَّذُ الْأَعْمَالُ عَلَى حِسَابِ ذَلِكَ (صحيح، تخريج مشكل الآثار، شعيب الأرنؤوط).

2.3 التجارة مع الله في الدنيا

2.4 يوم الحساب

2.4.1 البعث

2.4.2 الحساب يبدأ عند الميزان وقبل الجزاء

نقل القرطبي أن الحساب يكون قبل الميزان وفيه تعرض الأعمال فقط قبل أن توزن على الميزان وهذا لا يصح. لأن الحساب لا يكتمل إلا بعد وزن الأعمال كلها كبيرها وصغيرها وعدّها وجمعها. ولهذا فإن الحساب يبدأ مع بداية وزن الأعمال وينتهي عند الإنتهاء من وزنها وعدّها وجمعها. يبدأ الحساب مع وزن الأعمال وهنا تعرض الأعمال وتوزن على الميزان كلها صغيرها وكبيرها حتى يحسب حسابها الحساب الكامل والوافي الذي لا ظلم فيه، وبناء على الحساب الكلي يعطى الجزاء إما جنة وإما نار. لكن هذا الحساب نوعان، إما الحساب اليسير وإما الحساب العسير. فمن كان حسابه يسيراً يعطى كتاب أعماله بيمينه وأما من كان حسابه عسيراً يعطى كتاب أعماله من وراء ظهره في يده الشمال

قال تعالى: فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَقَلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ الانشقاق. وقد جاء عن الطبري قوله في تفسير هذه الآيات: وقوله: (فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) يقول تعالى ذكره: فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه. (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) بأن ينظر في أعماله، فيغفر له سيئها، ويُجازى على حسنّها. وقوله: (وَنَقَلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا) يقول: وينصرف

هذا المحاسبُ حساباً يسيراً إلى أهله في الجنة مسروراً. (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ) وأما من أعطي كتابه منكم أيها الناس يومئذ وراء ظهره، وذلك أن جعل يده اليمنى إلى عنقه وجعل الشمال من يديه وراء ظهره، فيتناول كتابه بشماله من وراء ظهره، ولذلك وصفهم جلّ ثناؤه أحياناً أنهم يؤتون كتبهم بشمالهم، وأحياناً أنهم يؤتونها من وراء ظهورهم. (فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا) يقول: فسوف ينادي بالهلاك، وهو أن يقول: واثيراه، واويلاه، وهو من قولهم: دعا فلان لهنه: إذا قال: والهناء. وقوله: (وَيَصْلَى سَعِيرًا) اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء مكة والمدينة والشام: (وَيَصْلَى) بضم الياء وتشديد اللام، بمعنى: أن الله يصلبهم تصلياً بعد تصليته، وإنضاجاً بعد إنضاجه، كما قال تعالى: كُفُّوا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا، واستشهدوا لتصحيح قراءتهم ذلك كذلك، بقوله: ثُمَّ الْحَجِيمَ صَلُّوهُ وَاقْرَأُوا ذلك بعض المدنيين وعامة قراء الكوفة والبصرة: (وَيَصْلَى) بفتح الياء وتخفيف اللام، بمعنى: أنهم يصلونها ويردونها، فيحترقون فيها، واستشهدوا لتصحيح قراءتهم ذلك كذلك بقول الله: يَصَلُّونَهَا وَإِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْحَجِيمِ . وقوله: (إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا) يقول تعالى ذكره: إنه كان في أهله في الدنيا مسروراً لما فيه من خلافة أمر الله، وركوبه معاصيه. وقوله: (إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ* بَلَى) يقول تعالى ذكره: إنَّ هذا الذي أُوتِيَ كتابه وراء ظهره يوم القيامة، ظنَّ في الدنيا أن لن يرجع إلينا، ولن يُبعث بعد مماته، فلم يكن يبالي ما ركب من المآثم؛ لأنه لم يكن يرجو ثواباً، ولم يكن يخشى عقاباً، يقال منه: حار فلان عن هذا الأمر: إذا رجع عنه، ومنه الخبر الذي روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في دعائه: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ" يعني بذلك: من الرجوع إلى الكفر، بعد الإيمان. وقوله: (بَلَى) يقول تعالى ذكره: بلى لِيَحُورَنَّ وَلَيَرَجِعَنَّ إلى ربه حياً كما كان قبل مماته. وقوله: (إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا) يقول جلّ ثناؤه: إن ربَّ هذا الذي ظن أن لن يحور، كان به بصيراً، إذ هو في الدنيا بما كان يعمل فيها من المعاصي، وما إليه يصير أمره في

الآخرة، عالم بذلك كله [هـ].

وقد صح أن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: سمعتُ النبي ﷺ يقولُ في بعضِ صلواتِهِ : اللهمَّ حاسبني حساباً يسيراً، فلَمَّا انصرف قلتُ: يا نبيَّ الله ما الحسابُ اليسيرُ؟ قال: أن ينظرَ في كتابِهِ فيتجاوزَ عنه، إنَّهُ من نوقَشَ الحسابَ يومئذٍ يا عائشةُ هلكَ (بإسناد جيد، الألباني أصل صفة الصلاة). وهذا فيه أن الحساب اليسير هو العرض الذي فيه يتجاوز عن السيئات وتجزي الحسنات وتضاعف برحمة الله وأن الحساب العسير هو النقاش الذي فيه حساب الحسنات والسيئات كبيرها وصغيرها ولا يتجاوز عن شيءٍ منها يعدل الله وكلاهما حساب. وهذا فيه أن الأنبياء والرسل سيحاسبون يوم القيامة.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: مَنْ حُوسِبَ عَذِبَ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا [الانشقاق: 8] قَالَتْ: فَقَالَ: إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ، وَلَكِنْ: مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكُ، وفي رواية: عذب (صحيح البخاري، صحيح مسلم). والمقصود والمراد بقول النبي ﷺ: (من حوسب عذب)، هو الحساب العسير الذي يكون فيه النقاش ولهذا جاء بيان ذلك في نهاية الحديث كما في أغلب الأحاديث الأخرى: (من نوقش الحساب عذب) كما سبق بيانه، وهذا هو المعنى الصحيح وهو الحساب العسير الذي فيه تناقش الأعمال كبيرها وصغيرها. فمن المعلوم أن كل المكلفين من الجن والإنس وحتى الأنبياء سيحاسبون يوم القيامة، فلا يكون المعنى أن كل من حوسب عموماً عذب فهذا لا يتوافق ما عدل الله ومع كتابه وما صح عن نبيه ﷺ.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:

النبي ﷺ فقالت:

ومن عدل الله جل جلاله أنه سبحانه يقضي في المظالم بين الناس يوم الحاسب ولهذا فقد قال النبي ﷺ: مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ

وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ حَقْمَلٍ عَلَيْهِ (صحيح البخاري). ومن ذلك أيضا أن الله يجزي عباده كل بحسب ما دل عليه من العمل فعن جرير بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ (صحيح مسلم).

العجائب:

إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلُصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكُرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتَنِي الْحَافِظُونَ؟ يَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَاكَ عَذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيَخْرُجُ بَطَاقَةً فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزَنَكَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَقَالَ: فَإِنَّكَ لَا تَظْلَمُ، قَالَ: فَتَوَضَّعَ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبَطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ (صحيح الترمذي، صحيحه الألباني)

الجزاء إما جنة أو نار

الجنة

مائة درجة

وهي مائة درجة كما جاء ذلك عن النبي ﷺ حيث قال: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ

فيها، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشّر الناس؟ قال: إن في الجنة مئة درجة، أعدّها الله للجهاديين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتهم الله، فاسألوهم الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة -أراه- فوقه عرش الرحمن، ومنه تفرّج أنهار الجنة. (صحيح البخاري).

أعلى مراتب الجنة هي الفردوس الأعلى كما جاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول وهو صحيح: إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يخير فلاناً نزل به، ورأسه على غنخي عليه، ثم أفاق فأخصص بصره إلى سقف البيت، ثم قال: اللهم الرفيق الأعلى فقلت: إذا لا يختارنا، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح، قالت: فكانت آخر كلمة تكلم بها: اللهم الرفيق الأعلى (صحيح البخاري). فعرفت عائشة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ أوري مقعده في الجنة فاختار الرفيق الأعلى قبل أن تقض روحه ﷺ.

وأدناهم مرتبة هو آخر رجل يدخل الجنة وهو آخر رجل يخرج من النار كما صح ذلك عن النبي ﷺ حيث قال: إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها، وآخر أهل الجنة دخولا الجنة: رجل يخرج من النار حيواً، فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملاءى، فيرجع فيقول: يا رب، وجدتها ملاءى، فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة، قال: فيأتيها فيخيل إليه أنها ملاءى، فيرجع فيقول: يا رب، وجدتها ملاءى، فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة؛ فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها -أو إن لك عشرة أمثال الدنيا- قال: فيقول: أسخري -أو أتضحك بي- وأنت الملك؟ قال: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صحك حتى بدت نواجذه، قال: فكان يقال: ذاك أدنى أهل الجنة منزلةً (صحيح البخاري، صحيح مسلم واللفظ له).

الحكم الرشيد

3.1 مقدمة

قال تعالى:

يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ [ص: 26]

تفسير ابن كثير:

هذه وصية من الله - عز وجل - لولاءة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلووا عن سبيله وقد تواعد [الله] تعالى من ضل عن سبيله ، وتناسى يوم الحساب ، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد حدثنا الوليد ، حدثنا مروان بن جناح ، حدثني إبراهيم أبو زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول ، وقرأت القرآن وفقهته ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل

في أمان . قلت يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود ؟ إن الله - عز وجل - جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال : (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون) الآية .

وقال عكرمة : (لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) هذا من المقدم والمؤخر لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا .

وقال السدي : لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب .
وهذا القول أمشى على ظاهر الآية فالله أعلم .

3.2 أركان الحكم الرشيد

يقام الحكم الرشيد على ثلاثة أركان وهي: (1) إقامة الحق بالعلم الصحيح، (2) إقامة الميزان الشرعي بالعدل والقسط، (3) الأخذ بأسباب القوى كالحديد وما يلزم ذلك من علوم كالحساب والطب وغيرها من العلوم التي تكمن المسلمين من دحر الأعداء ونشر الحق ونصرته. فهذا كله من نصر الله ورسله وقد وعد سبحانه بنصر من ينصره كما في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ محمد.

وبهذه الأمور الثلاثة التي يبنى عليها الحكم الرشيد يكون التمكن الذي وعد الله به كما ذكر سبحانه في قصة ذي القرنين في قوله تعالى: إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ الكهف. وقد بين معنى ذلك الشيخ العثيمين رحمه الله أن معنى "من كل شيء سببا" أن الله أتاه كل الأسباب التي بها يكون التمكن في الأرض من قوة السلطة وتمام الملك فانتفع بما أعطاه الله

من الأسباب. فهذا التمكن جاء بتسخير الله وهذا لأن ذي القرنين أخذ بالأسباب التي أعطاها الله له مع إقامة الحق وإقامة العدل كما في قوله تعالى: قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ الكهف. وقد جاء في تفسير السعدي رحمه الله أن هذا يدل على كونه من الملوكة الصالحين الأولياء، العادلين العالمين، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد، بما يليق بحاله [هـ]. وقد أثبت سبحانه له التمكن والرشد لما له من الخبرة في إتباع الأسباب كما في قوله تعالى: كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ الكهف. ومعنى ذلك أي: أحطنا بما عنده من الخير والأسباب العظيمة كما جاء في تفسير السعدي. ومن ذلك أنه كان لديه من الأسباب العلية ما يمكنه من فهم العديد من العلوم التي تمكنه من الانتقال إلى مشارق الأرض ومغاربها وفهم اللغات الأخرى، ومن ذلك ما فقه به ألسنة أولئك القوم (الذين لا يفقهون قولاً) الذين اشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج [١] إفسادهم في الأرض، فلم يكن ذو القرنين ذا طمع، ولا رغبة في الدنيا، ولا تاركا لإصلاح أحوال الرعية، بل كان قصده الإصلاح، فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجر، وشكر ربه على تمكنه واقتداره [هـ]. فلم يطلب منهم إلا أن يعينوه على حمل زير أي قطع الحديد ووضعه في مكانه بين الجبلين وإشعال النار له بالمنافخ الشديدة والآلات العظيمة لإذابة النحاس حتى يكون سائلا فيصبه عليها ليستحكم السد استحكما هائلا يعجز يأجوج ومأجوج على الصعود فوقه فضلا عن ثقبه.

وقد علم ذا القرنين أن كل ذلك من فضل الله عليه حيث قال تعالى: قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ الكهف. وما أجمل ما أورده السعدي في تفسيره هذه الآية حيث قال: فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى موليا

وقال: هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي أَي: من فضله وإحسانه عليّ، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترفهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال: قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ التل. بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم الكبار، تزيدهم شرا وبطرا. كما قال قارون، لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، قال: قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي الْقَصَص.

وقد علم أيضا ذا القرنين بما لديه من الخبرة بأسباب الحديد وما قد يطرأ عليه من صدى وتأكل بعد زمن أنه سيأتي يوم وينهار هذا السد العظيم ويخرج يأجوج ومأجوج في آخر الزمان كما في قوله تعالى: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ الكهف. وجاء في تفسير السعده رحمه الله أن قوله: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي أَي: لخروج يأجوج ومأجوج جَعَلَهُ أَي: ذلك السد المحكم المتقن دَكَّاءً أَي: دكه فانهدم، واستوى هو والأرض وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا [هـ]. ولهذا فقد أخبر سبحانه بوقوع ذلك لا محالة في قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ الأنبياء. وقد قال السعدي رحمه الله: أنه في آخر الزمان، يفتح السد عنهم، فيخرجون إلى الناس في هذه الحالة والوصف، الذي ذكره الله من كل من مكان مرتفع، وهو الحذب ينسلون أي: يسرعون. وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما لبذواتهم، وإما لما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد، وتسهل عليهم الصعب، وأنهم يقهرون الناس، ويعلمون عليهم في الدنيا، وأنه لا يد لأحد بقتالهم.

وكل ما تقدم فيه أن ذا القرنين لم يكن فقط يأخذ بالأسباب وإنما كان يقيم الحق والعدل مع الأخذ بالأسباب والعلم بها وذلك من فضل الله عليه وتوفيقه له رحمه الله تعالى ورضي عنه. وقد

قال عنه الشيخ ابن باز رحمه الله: ذو القرنين ملك عظيم صاحب خير، وإحسان، وإصلاح، واختلف الناس في نبوته، والمشهور أنه ملك صالح. وفي موضع آخر رجع الشيخ ابن باز رحمه الله أن ذا القرنين نبيا من الأنبياء لأنه كان يتبع أمر الله في الأرض وظاهر الآيات أنه كان يتلقى هذه الأوامر والتوجيهات من ربه جل جلاله وهذا شأن النبي.

3.3 شروط الحكم الرشيد

ولقد وضع النبي ﷺ لنا أسس هذه الدولة التي يحكم فيها بكاتب الله عز وجل وسنة نبيه ويكون فيها الشورى، والرحمة، واللين، والحكمة، والعدل، والرشاد. ففي هذه الدولة يتساوى فيها المسلمون في الحقوق والواجبات الأساسية ومن أعظم ذلك حرمة الدم والمال والعرض وإن اختلفت ألوانهم وأشكالهم فقال ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبٍ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَلَبَّغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَبَّغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ (صحيح، تخریج المسند لشعيب، الصحيح المسند).

ومن ذلك أيضا أن المسلمين يتساوون أيضا في الحدود وهذا من عدل الإسلام إذ تطبق الحدود على الشريف والضعيف على حد السواء بدون تفریق فقد صح عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أَنَّ قُرَيْشًا أَهْمُهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غُرُورَةِ الْفَتْحِ،

فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأُتِيَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ فِيهَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ فَقَالَ لَهُ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاخْتَطَبَ، فَأُتِيَ عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقُطِعَتْ يَدُهَا. وَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَحَسَنْتُ تَوْبَتَهَا بَعْدُ، وَتَزَوَّجْتُ، وَكَانَتْ تَأْتِينِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (صحيح مسلم).

3.4 واجبات الحكم الرشيد

تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة:

لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِكُفْرِ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ بِفَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ النَّاسُ، وَبَابٌ يَخْرُجُونَ

قال الشيخ ابن باز: فترك ﷺ نقض الكعبة وإدخال حجر إسماعيل فيها خشية الفتنة، وهذا يدل على وجوب مراعاة المصالح العامة وتقديم المصلحة العليا، وهي تأليف القلوب وثبيتها على الإسلام على المصلحة التي هي أدنى منها وهي إعادة الكعبة على قواعد إبراهيم.

الرحمة:

قال ﷺ: مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمُ، وَمَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُغْفَرْ لَهُ (صحيح الترمذي).

التيسير:

قال ﷺ: يَسِّرُوا وَلَا تَعْسِرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا (صحيح البخاري).

إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَا يُشَادُّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْعَدْوَةِ وَ
الرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ الرَّاي: أبو هريرة | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الجامع الصفحة أو
الرقم: 1611 | خلاصة حكم المحدث: صحيح

جاء عن سعد بن أبي وقاص أنه استأذن عمرَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده لِسَاءٌ مِنْ
قُرَيْشٍ يَكْلُمُهُ وَيَسْتَكْثِرُهُ، عَالِيَةً أَصَوَاتُهُنَّ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ قُنَّ يَتَدَرَّنَ الْحِجَابَ، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضْحَكُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَضْحَكَ اللَّهُ سِنَّكَ يَا رَسُولَ
اللَّهِ، قَالَ: نَجِيتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي، فَلَمَّا سَمِعَنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ! قَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ يَا
رَسُولَ اللَّهِ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ يَهَبْنَ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ عُدَوَاتِ أَنْفُسِهِنَّ؟ أَتَهْنِئَنِي وَلَا تَهَبَنَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! قُلْنَ: نَعَمْ، أَنْتَ أَفْظُ وَأَغْلَظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقَيْكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا جُفَاً إِلَّا سَلَكَ جُفَاً غَيْرَ جُفَاكَ (صحيح
البخاري).

الأمانة: قال ﷺ: مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رِعِيَةً، يَمُوتُ يَوْمَ مَوْتٍ، وَهُوَ غَاشٌّ لِرِعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ
عَلَيْهِ الْجَنَّةَ (صحيح الجامع وصححه الألباني). وفي رواية: مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رِعِيَةً، فَلَمْ يَحْطِهَا بِنَصِيحَةٍ،
إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَاحَةَ الْجَنَّةِ (صحيح البخاري).

النصيحة من الرعية:

وفي صحيح الترمذي من حديث أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ -

- يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده.

3.5 الحكم الرشيد في زمن الصحابة

البيان الواضح لسنتين الخلافة الراشدة

قال صلى الله عليه وسلم

خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتي الله الملك من يشاء

الراوي : سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الجامع

| الصفحة أو الرقم : 3257 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

قال سعيدٌ: قال لي سَفِينَةُ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ: أَبُو بَكْرٍ سَنَتَيْنِ، وَعُمَرُ عَشْرًا، وَعُثْمَانُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ، وَعَلِيٌّ كَذَا، قَالَ سَعِيدٌ: قُلْتُ لِسَفِينَةَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّ عَلِيًّا لَمْ يَكُنْ بَخْلِيفَةً، قَالَ: كَذَبْتُ أَسْتَأْهُ بَنِي الزَّرْقَاءِ - يَعْنِي: بَنِي مَرْوَانَ - الرَّاي: سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث : الألباني

| المصدر : صحيح أبي داود الصفحة أو الرقم: 4646 | خلاصة حكم المحدث : حسن

وجاء في تفسير ابن كثير وجاء في تفسير القرطبي ان الشعبي قال: كان بين عمر وأبي خصومة ، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت ، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته ، فقال عمر : هذا أول جورك ، أجلسني وإياه مجلسا واحدا ، فجلسا بين يديه .

قال أبو بكرٍ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ ، وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : مَا مِنْ قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي ، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا ، ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا إِلَّا يَوْشِكُ أَنْ يُعْصِمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابِ الرَّايِ : أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح أبي داود الصفحة أو الرقم: 4338 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

لما بويغ أبو بكر بالخلافة بعد بيعة السقيفة تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد أيها الناس فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم".

(يا أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتوني على حق فأعينوني، وإن رأيتوني على باطل فسدّدوني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم. ألا إن أقوام عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم).

أن رجلاً، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت كأن ميزاناً دلي من السماء، فوزنت بأبي بكر فريحت بأبي بكر، ثم وزن أبو بكر بعمر، فرجح أبو بكر، ثم وزن عمر بعثمان، فرجح عمر، ثم رفع الميزان، فاستهلها رسول الله صلى الله عليه وسلم خلافة نبوة، ثم يؤتي الله الملك من يشاء

الراوي : سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث : البوصيري | المصدر : إتحاف الخيرة المهرة الصفحة أو الرقم: 11 / 5 | خلاصة حكم المحدث : إسناده صحيح | أحاديث مشابهة | شرح حديث مشابه

أَنَّ رجلاً قال : يا رسول الله رأيتُ كأنَّ ميزاناً دُلِّيَ مِنَ السَّمَاءِ فُوِزَتْ فِيهِ أَنْتَ وَأَبُوبَكْرٍ فَرَجَحَتْ بِأَبِي بَكْرٍ ثُمَّ وُزِنَ فِيهِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَرَجَحَ أَبُو بَكْرٍ بِعُمَرَ ثُمَّ وُزِنَ فِيهِ عُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَحَ عُمَرُ بِعُثْمَانَ ثُمَّ رُفِعَ الْمِيزَانُ فَاسْتَأْهَلَهَا يَعْنِي تَأَوَّلَهَا ثُمَّ قَالَ : خِلَافَةُ نُبُوَّةٍ ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ الْمَلِكَ مَنْ يَشَاءُ

الراوي : أبو بكره نفع بن الحارث | المحدث : الألباني | المصدر : تخریج کتاب السنة الصفحه أو الرقم : 1135 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

3.6 مختصر سيرة عمر بن عبد العزيز

تبدأ قصة عمر بن عبد العزيز مع الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عندما نهى في خِلافته عن مَذَقِ اللَّبَنِ بِالْمَاءِ، فخرج ذات لَيْلَةٍ فِي حَوَاشِي الْمَدِينَةِ فَإِذَا بِامْرَأَةٍ تَقُولُ لِابْنَةِ لَهَا أَلَا تَمْدُقِينَ لَبَنَكَ فَقَدْ أَصْبَحْتَ. فَقَالَتْ الْجَارِيَةُ كَيْفَ أَمْدُقُ وَقَدْ نَهَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمَذَقِ. فَقَالَتْ قَدْ مَذَقَ النَّاسُ فَا مَذَقِي فَمَا يَدْرِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَتْ إِنْ كَانَ عُمَرُ لَا يَعْلَمُ فَلَيْسَ يَعْلَمُ، مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَهُ وَقَدْ نَهَى عَنْهُ. فَوَقَعَتْ مَقَالَتَهَا مِنْ عُمَرَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ، دَعَا عَاصِمًا ابْنَهُ فَقَالَ يَا بَنِي أَذْهَبُ إِلَى مَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا فَاسْأَلْ عَنِ الْجَارِيَةِ وَوصفها لَهُ. فَذَهَبَ عَاصِمٌ، فَإِذَا هِيَ جَارِيَةٌ مِنْ بَنِي هِلَالٍ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ أَذْهَبُ يَا بَنِي فَتَزَوَّجْهَا، فَمَا أَحْرَاهَا أَنْ تَأْتِيَ بِقَارِسٍ يَسُودُ الْعَرَبَ. فَتَزَوَّجَهَا عَاصِمٌ بِنَ عُمَرَ فَقَوْلَتْ لَهُ بِنْتُ عَاصِمٍ بِنَ عُمَرَ بِنَ الْخَطَّابِ، فَتَزَوَّجَهَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بِنَ مَرْوَانَ بِنَ الْحَكَمِ فَأَتَتْ بِعُمَرَ بِنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ. وَجَاءَ أَيْضًا أَنَّ عُمَرَ بِنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ ذَاتَ يَوْمٍ اسْتَيْقِظَ مِنْ نَوْمِهِ فَسَحَّ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ وَفَرَكَ عَيْنَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ مِنْ هَذَا الَّذِي مِنْ وَلَدِ عُمَرَ يُسَمَّى عُمَرَ يُسِيرُ بِسِيرَةِ عُمَرَ يُرَدِّدُهَا مَرَّاتٍ [4]. وقيل إن عمر بن الخطاب قال إن من ولدي رجلاً بوجهه شتر يملأ الأرض عدلاً [5].

وولد عمر بن عبد العزيز بالمدينة فلما شب وعقل وهو غلام كان يأتي عبد الله بن عمر كثيرا لقرابة أمه منه (خال أمه) وكان يحبه ويحب التشبه به [4]. وروى ضمام بن إسماعيل عن أبي قبيل أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير فأرسلت إليه أمه وقالت ما يبكيك؟ قال ذكرت الموت قال وكان يومئذ قد جمع القرآن فبكت أمه حين بلغها ذلك [5]. ونقل الزبير بن بكار عن العتي أن أول ما استبين من عمر بن عبد العزيز أن أباه ولي مصر وهو حديث السن يشك في بلوغه فأراد إخراجه فقال يا أبت أو غير ذلك؟ لعله أن يكون أنفع لي ولك أن أبقى في المدينة فأقعد إلى فقهاء أهلها وأتأدب بأدابهم فوجهه إلى المدينة فاشتهر بها بالعلم والعقل مع حادثة سنة [5]. ولما أرادت أم عمر أن تهجر إلى مصر لتلتحق بزوجها عبد العزيز بن مروان الذي كان واليا لمصر، راجعت خالها عبد الله بن عمر رضي الله عنه فطلب منها عبد الله بن عمر ترك عمر بن عبد العزيز في المدينة وقال لها: خلفي هذا الغلام عندنا يريد عمر فإنه أشبهكم بنا أهل البيت. نخلفته عنده. فنشأ في المدينة وتعلم العلم الشرعي النافع مع ما كان له من خشية الله التي عرف بها. وعند وفاة أبيه، بعث إليه عمه عبد الملك بن مروان وخلطه بولده وقدمه على كثير منهم وزوجه بابنته فاطمة [5]. جاء عنه أنه دائما ما يفقده رفقاءه فيجدونه يجلس باكما. وسأله عن ذلك أمير المؤمنين وابن عمه سليمان بن عبد الملك فقال: ما يبكيك يا أبا حفص، فقال عمر بن عبد العزيز: أبكاني يا أمير المؤمنين أنني ذكرت يوم القيامة، من قدم شيئا وجده، ولم أقدم شيئا فلم أجد شيئا. وخرج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز إلى الحج فأصابهم مطر شديد ورعد وبرق فقال سليمان هل رأيت مثل هذا يا أبا حفص فقال يا أمير المؤمنين هذا في حين رحمتي فكيف به في حين غضبه [4].

وجاء أيضا أنه ذات ليلة خرج عمر بن عبد العزيز على مركب له يسير وحده وتبعه مراحم فتقدم عمر وتأخر مراحم فنظر مراحم فإذا هو برجل يسير عمر وعهده به وحده وقد وضع الرجل يده على

عائق عمر قال مُزاحم فقلت في نفسي من هذا إن هذا لذو دالة عليه فحركت للحوق به فأدركته فإذا هو وحده لا أرى معه أحدا غيره فقلت له رأيت معك رجلا أنفا قد وضع يده على عاتقك وهو يسيلرك فقلت في نفسي من هذا إن هذا لذو دالة عليه فلحقتكما فلم أر أحدا غيرك فقال عمر أوقد رأيته يا مُزاحم قال نعم قال إني لأحسبك رجلا صالحا ذلك يا مُزاحم الخضر أعلمني أني سألي هذا الأمر وأعان عليه [4]. وذكر ذلك الذهبي فقال: عن رياح بن عبيدة قال خرج عمر بن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متوكئ على يده فقلت في نفسي هذا شيخ جاف فلما صلى ودخل لحقته فقلت له من الشيخ الذي كان يتكئ على يدك فقال يا رياح رأيته؟ قلت: نعم قال ما أحسبك إلا رجلاً صالحاً ذاك أخي الخضر أتاني فأعلمني أني سألي أمر الأمة وإني سأعدل فيها [5].

وولي عمر بن عبد العزيز أميرا على المدينة بأمر الخليفة قبله سليمان بن عبد الملك حيث أن سليمان لم يستطع توريث الملك لأبناءه لصغرهم فكان يشكوا في مرضه ويقول: (إن بني صبية صغار، أفلح من كان له كجار) و، (إن بني صبية صفيون، أفلح من كان له ربيون). وكان عمر عبد العزيز يرد عليه بقوله: يا أمير المؤمنين، يقول الله تبارك وتعالى (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) عارضا عليه أن يحتسب ذلك لله جل جلاله إن ولى غيرهم. فحدث سليمان بن عبد الملك نفسه بولاية عمر بن عبد العزيز لما كان يعرف من حاله، فشاور رجاء فيمن يعقد له فأشار عليه رجاء بعمر وسدد له رأيه فيه، فوافق ذلك رأي سليمان وقال لأعقدن عقدا لا يكون للشيطان فيه نصيب فاستخلف فيه عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك من بعد عمر. فلما لقي سليمان ربه وقضى الله عليه الموت فقام عمر حتى جلس على المنبر فنعى للناس سليمان وفتح الكتاب فإذا فيه استخلاف عمر ويزيد بن عبد الملك فسمع الناس وأطاعوا وقاموا فبايعوا لعمر عبد العزيز. وجاء أيضا أن رجلا من أهل المدينة قد رأى في منامه كأن قائلا من السماء ينظر إليه يقول أتاكم العدل والدين وإظهار العمل الصالح في

المُصَلِّينَ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ مَنْ هُوَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَزَلَّ إِلَى الْأَرْضِ وَكَتَبَ بِيَدِهِ عَمْرٌ فَاسْتَخْلَفَ عَمْرٌ فِي يَوْمٍ تِلْكَ اللَّيْلَةَ [4].

وجاء أيضا في كتاب سيرة عمر عبد العزيز [4] أنه لما دفن سُلَيْمَانُ دَعَا عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِدَوَاةٍ وَفَرَطَاسٍ فَكَتَبَ ثَلَاثَةَ كُتُبٍ لَمْ يَسْعُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُؤَخِّرَهَا فَأَمَضَاهَا مِنْ فَوْرِهِ فَأَخَذَ النَّاسُ فِي كِتَابِهِ إِيَّاهَا هُنَالِكَ فِي هَمَزِهِ يَقُولُونَ مَا هَذِهِ الْعَجَلَةُ أَمَا كَانَ يَصْبِرُ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَنْزِلِهِ هَذَا حَبِ السُّلْطَانِ. فإذا به يعجل بالحكم بالعدل في ثلاث مسائل وهي:

• كَانَ سُلَيْمَانُ قَدْ أَمَرَ مَسْلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بِحَصَارِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ بِرَأْسِ الْبَحْرِ وَأَشْفَى عَلَى فَتْحِهَا ثُمَّ خَدَعَ عَنْهَا حَتَّى أَحْرَزُوا طَعَامَهُمْ وَحَوَائِجَهُمْ ثُمَّ أَغْلَقَهَا دُونَهُ بَعْدَ الْإِشْفَاءِ عَلَيْهَا فَبَلَغَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ فَغَضِبَ مِمَّا فَعَلَ بِهِ خَلْفَ أَنْ لَا يَقْفِلَهُ مِنْهَا مَا دَامَ حَيًّا فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْمَقَامُ وَجَاعُوا حَتَّى أَكَلُوا الدَّوَابَّ مِنَ الْجُحْدِ وَالْجُوعِ حَتَّى يَتَنَحَّى الرَّجُلُ عَنْ دَابَّتِهِ فَتَقَطَّعَ بِالسُّيُوفِ فَبَلَغَ رَأْسَ الدَّابَّةِ كَذَا وَكَذَا دَرَاهِمًا وَلَجَّ سُلَيْمَانُ فِي أَمْرِهِمْ فَكَانَ ذَلِكَ يَغْمُ عَمْرُ فَلَمَّا وَلِيَ رَأَى أَنَّهُ لَا يَسْعُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَلِي شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ يُؤَخِّرُ قَفْلَهُمْ سَاعَةً فَذَلِكَ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى تَعْجِيلِ الْكُتُبِ.

• كُتِبَ بِعَزْلِ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدِ التَّنُوخِيِّ وَكَانَ عَلَى خَرَاكِ مِصْرَ وَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُحْبَسَ فِي كُلِّ جُنْدٍ سَنَةً وَيُقِيدَ وَيَحُلَّ عَنِ الْقَيْدِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ ثُمَّ يَرُدُّ فِي الْقَيْدِ وَكَانَ غَاشِمًا ظُلُومًا مَعْتَدِيًا فِي الْعُقُوبَاتِ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقْطَعُ الْأَيْدِيَّ فِي خِلَافِ مَا يُؤْمَرُ بِهِ وَيَشُقُّ أَجْوَافَ الدَّوَابِّ فَيَدْخُلُ فِيهَا الْقِطَاعَ وَيَطْرَحُهُمُ لِلتَّمَاثِيحِ فُحِبَسَ بِمِصْرَ سَنَةً ثُمَّ نُقِلَ إِلَى أَرْضِ فِلَسْطِينَ فَحِبَسَ بِهَا سَنَةً ثُمَّ مَاتَ عَمْرُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَوَلِيَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَرَدَّ أَسَامَةَ عَلَى مِصْرَ.

• كُتِبَ بِعَزْلِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي مُسْلِمٍ عَنْ إِفْرِيقِيَّةٍ وَكَانَ عَامِلَ سُوءٍ يَظْهَرُ التَّأَلُّهُ وَالنَّفَازَ لِكُلِّ مَا أَمَرَ

بِهِ السُّلْطَانُ مِمَّا جَلَّ أَوْ صَغَرَ مِنَ السَّيَرَةِ بِالْجَوْرِ وَالْمُخَالَفَةِ لِلْحَقِّ وَكَانَ فِي هَذَا يَكْثُرُ الذِّكْرُ وَالتَّسْبِيحُ وَيَأْمُرُ بِالْقَوْمِ فَيَكُونُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ يُعَذِّبُونَ وَهُوَ يَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَآلِهُمُ الْحَمْدُ اللَّهُ شَدِيدٌ يَا غُلَامَ مَوْضِعَ كَذَا وَكَذَا لِبَعْضِ مَوَاضِعِ الْعَذَابِ وَهُوَ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ شَدِيدٌ يَا غُلَامَ مَوْضِعَ كَذَا وَكَذَا فَكَانَتْ حَالَتُهُ تِلْكَ شَرَّ الْحَالَاتِ فَكُتِبَ بَعْزُهُ.

وكل هذا فيه أن عمر بن عبد العزيز كان رجلاً عادلاً لا يرضى بالظلم حيث عجل بالعدل والإنصاف عندما تولى الأمر رحمه الله. وجاء عن ميمون بن مهران أنه قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول لو أفتيت فيكم خمسين عاماً ما استكملت فيكم العدل إني لأريد الأمر من أمر العامة فأخاف ألا تحمله قلوبهم فأخرج معه طمعا من طمع الدنيا [5]. وجاء عن عبد الله بن محمد عن الأوزاعي أنه قال كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رسالة لم يحفظها غيري وغير مكحول: أما بعد فإنه من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما ينفعه والسلام [5]. وقال الأوزاعي كان عمر بن عبد العزيز إذا أراد أن يعاقب رجلاً حبسه ثلاثاً ثم عاقبه كراهية أن يجعل في أول غضبه [5]. وجاء أيضاً أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عدي بن أرطاة عامله على العراق: إذا أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق القادر عليك، واعلم أن ما لك عند الله أكثر مما لك عند الناس [6]. وكتب عبد الحميد بن عبد الرحمن إلى عمر: إن رجلاً شتمك فأردت أن أقتله، فكتب إليه عمر عبد العزيز: لو قتلت لأقذت بك، فإنه لا يقتل أحد بشتم أحد إلا رجل شتم نبياً [6].

وبعد أن دفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز بالأمر قربت إليه المراكب، فقال ما هذه، فقالوا مراكب لم تترك قط يركبها الخليفة أول ما يلي، فتركها وخرج يلتمس بغلته، وقال يا مراحم ضم هذا إلى بيت مال المسلمين. ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب للخلفاء أول ما يلون، فقال ما هذه، فقالوا سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما

يَلي، قَالَ يَا مُرَاحِمُ ضُمَّ هَذِهِ إِلَى أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ رَكِبَ بَغْلَتَهُ. وَانْصَرَفَ إِلَى الْفَرَسِ وَالْوِطَاءِ الَّذِي لَمْ يَجْلِسْ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَفْرَشُ لِلْخُفَاءِ أَوَّلَ مَا يَلُونِ، فَجَعَلَ يَدْفَعُ ذَلِكَ بِرِجْلِهِ حَتَّى يَقْضِيَ إِلَى الْحَصِيرِ، ثُمَّ قَالَ يَا مُرَاحِمُ ضُمَّ هَذَا لِأَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ. فَلَمَّا أَصْبَحَ عَمْرٌ، قَالَ لَهُ أَهْلُ سُلَيْمَانَ هَذَا لَكَ وَهَذَا لَنَا، قَالَ وَمَا هَذَا وَمَا هَذَا، قَالُوا هَذَا مِمَّا لَبَسَ الْخَلِيفَةُ مِنَ الثِّيَابِ وَمَسَّ مِنَ الطَّيِّبِ فَهُوَ لَوْلَدِهِ، وَمَا لَمْ يَمَسْ وَلَمْ يَلْبَسْ فَهُوَ لِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ وَهُوَ لَكَ، قَالَ عَمْرٌ مَا هَذَا لِي وَلَا لِسُلَيْمَانَ وَلَا لَكُمْ وَلَكِنْ يَا مُرَاحِمُ ضُمَّ هَذَا كُلَّهُ إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ. فَتَشَاوَرَ عَلَيْهِ وَزَرَاءُ فِيهِمَا بَيْنَهُمْ فَقَالُوا أُمَّا الْمَرَاقِبُ وَالسَّرَادِقَاتُ وَالْجُجُرُ وَالشَّوَارِ وَالْوِطَاءُ فَلَيْسَ فِيهِ رَجَاءٌ بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنْهُ فِيهِ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ، وَبَقِيَتْ خَصْلَةٌ هِيَ الْجَوَارِي نَعْرِضُهَا عَلَيْهِ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَا تُرِيدُونَ فِيهِ، فَإِنْ كَانَ وَإِلَّا فَلَا طَمَعَ لَكُمْ عِنْدَهُ. فَأَتَى بِالْجَوَارِي فَعَرَضَ عَلَيْهِ كَأَمْثَالِ الدَّمِيِّ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ جَعَلَ يَسْأَلُهُنَّ وَاحِدَةً وَاحِدَةً مَنْ أَنْتِ، وَلِمَنْ كُنْتِ، وَمَنْ بَعَثَ بِكِ، فَتَخَبَّرَهُ الْجَارِيَةَ بِأَصْلِهَا وَلِمَنْ كَانَتْ وَكَيْفَ أَخَذَتْ، فَيَأْمُرُ بِرَدِّهَا إِلَى أَهْلِهَا وَيَحْمِلُنَّ إِلَى بِلَادِهَا حَتَّى فَرَّغَ مِنْهَا. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ أَيْسَوْا مِنْهُ وَعَلِمُوا أَنَّهُ سَيَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْحَقِّ. وَأَحْتَجَبَ مِنَ النَّاسِ ثَلَاثًا أَيَّامَ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَوَجَّهَ بَنِي مَرْوَانَ وَبَنِي أُمَيَّةَ وَأَشْرَافَ الْجُنُودِ وَالْعَرَبَ وَغَيْرَهُمْ بِبَابِهِ يَنْظُرُونَ مَا يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ مِنْهُ، فَجَلَسَ لِلنَّاسِ بَعْدَ ثَلَاثِ أَيَّامٍ وَحَمَلَهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ فَعَرَفُوهَا، فَردَ الْمَظَالِمَ، وَأَحْيَا الْكُتَّابَ وَالسُّنَّةَ، وَسَارَ بِالْعَدْلِ، وَرَفَضَ الدُّنْيَا وَزَهَدَ فِيهَا، وَتَجَرَّدَ لِأَحْيَاءِ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَرَحِمَهُ اللَّهُ [4].

وجاء أيضاً أنه لما انصرف عمر بن عبد العزيز من دفن سليمان بن الملك تبعه الأمويون، فلما دخل إلى منزله قال له الحاجب: الأمويون بالباب. قال: وما يريدون؟ قال: ما عودتهم الخلفاء قبلك. قال ابنه عبد الملك وهو إذ ذاك ابن أربع عشرة سنة: اتأذن لي في إبلاغهم عنك. قال: وما تبلغهم؟ قال: أقول: أبي يقرئكم السلام ويقول لكم إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم [6]. وجاء عن

ابنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز أنه قال لأبيه: يا أبت، مالك لا تنفذ الأمور؟ فوالله ما أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق! قال له عمر: لا تعجل يا بني، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعونه جملة ويكون من ذلك فتنة [6]. وهذا فيه أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز كان ابنا صالحا، وقد جاء أنه مات قبل أبوه. فلما نزل بعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز الموت قال له عمر: كيف تجددك يا بني؟ قال أجدني في الموت، فاحتسبني، فتواب الله خير لك مني، فقال: يا بني، والله لأن تكون في ميزاني أحب إليّ من أن أكون في ميزانك. قال: أما والله لأن يكون ما تحب، أحب إليّ من أن يكون ما أحب! ثم مات، فلما فرغ من دفنه وقف على قبره وقال: يرحمك الله يا بني فلقد كنت سارا مولودا، وبارا ناشئا، وما أحب أني دعوتك فأجبتني؛ فرحم الله كل عبد، من حر أو عبد، ذكر أو أنثى دعا لك برحمة! فكان الناس يترحمون على عبد الملك ليدخلوا في دعوة عمر؛ ثم انصرف، فدخل الناس يعزونه، فقال: إن الذي نزل بعبد الملك أمر لم نزل نعرفه، فلما وقع لم ننكره [6].

وجاء عن عمر عبد العزيز أنه كان لا يحب من يقوم له، ولما ولي عمر بن عبد العزيز قام الناس بين يديه فقال يا معشر الناس إن تقوموا نتم وإن تقعدوا نقعد فإنما يقوم الناس لرب العالمين إن الله فرض فرائض وسن سنا من أخذ بها لحق ومن تركها محق ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس يوصل إلينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته ويدلنا من العدل إلى ما لا نهتدي إليه ويكون عوننا لنا على الحق ويؤدّي الأمانة إلينا وإلى الناس ولا يعتب عندنا أحدا ومن لم يفعل فهو في حرج من صحبتنا والدخول علينا [4]. وجاء عنه أنه كان يرد الإطراء فعن عمرو بن عثمان الحمصي حدثنا خالد بن يزيد عن جعونة قال دخل رجل على عمر بن عبد العزيز فقال يا أمير المؤمنين إن من قبلك كانت الخلافة لهم زينا وأنت زين الخلافة فأعرض عنه [5]. وقال ابن عيينة قال رجل لعمر بن عبد العزيز جزاك

الله عن الإسلام خيراً قال بل جزی الله الإسلام عني خيراً [5]. وذات يوم ناداه رجل فقال يا خليفة الله في الأرض فقال له عمر مه إني لما ولدت اختار لي أهلي اسماً فسموني عمر فلو ناديتني يا عمر أجبتك [6]. فلما وليتموني أموركم سميتوني أمير المؤمنين فلو ناديتني يا أمير المؤمنين أجبتك وأما خليفة الله في الأرض فلست كذلك ولكن خلفاء الله في الأرض داود النبي عليه السلام وشبهه قال الله تبارك وتعالى: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض) [4].

وكان عمر بن عبد العزيز إذ كان والياً على المدينة إذا بات على ظهر المسجد مسجداً رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تقربه امرأة إعظاماً لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم [4]. ومن حكمه أنه أرجع مبدأ الشورى، فلما قدم عمر بن عبد العزيز المدينة ونزل دار مروان دخل عليه الناس فسلموا، فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة: عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبا بكر بن عبد الرحمن، وأبا بكر بن سليمان بن أبي حثمة، وسليمان بن يسار، ووالقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عبد الله ابن عمرو، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد، فدخلوا عليه فجلسوا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: إني إنما دعوتكم لأمر تخرجون عليه، وتكونون فيه أعواناً على الحق، ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدى، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة، فأخرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغني. فخرجوا يمجزون خيراً، واقتروا [7]. وجاء أيضاً أنه لما قدم أنس بن مالك خادم النبي صلى الله عليه وسلم من العراق إلى المدينة، كانت تعجبه صلاة عمر بن عبد العزيز وكان عمر أميرها، فصرى أنس خلفه فقال ما صليت خلف إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه صلاة بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من إمامكم هذا. وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يتم الركوع والسجود ويخفف القعود والقيام [7]. وعن عطاء قال كان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذكرون الموت والقيامة والآخرة

ويكون [5].

وكان يكره كل الظالمين وبالأخص المجاج ومن ذلك أن المجاج قد ولي الموسم، فكتب عمر إلى الخليفة يستعفيه أن يمر عليه بالمدينة. فكتب أمير المؤمنين إلى المجاج إن عمر بن عبد العزيز كتب إلي يستعفيني من مراك عليه فلا عليك أن لا تمر بمن كرهك فتنحى عن المدينة [4]. جاء أيضا حمد بن علي، ثنا أبو العباس بن قتيبة، ثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى، حدثني أبي، عن جدي قال: قال عمر: "ما حسدت المجاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبه القرآن وأعطاه أهله، وقوله حين حضرته الوفاة: اللهم اغفر لي، فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل [8]."

وكان عمر عبد العزيز متبعًا لكتاب الله وسنة نبيه فقال: سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاه الأمر من بعده سننا الأخذ بها اعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله وليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في أمر خالفها من اهتدى بها فهو مهتد ومن استنصر بها فهو منصور ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصله جهنم وساءت مصيرا [4]. وكان عمر بن عبد العزيز يخطب في قومه بالوعظ والتذكير بأمر الله فتارة يخطب عن التقوى وتارة يخطب عن البعث والتوبة والإستغفار وكان يبكي على المنبر ويبكي من حوله من الناس. وخطب أيضا: أيها الناس، لا تستصغروا الذنوب، والتمسوا تحييص ما سلف منها بالتوبة منها؛ إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين، وقال عز وجل: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ [6]. وكانت خطبه قصيرة جدا ولكن بالغة ومؤثرة ومن ذلك أنه ذات يوم خطب بالناس فقال أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبي وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليكم كتاب فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة وما حرم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة ألا إني لست بقاض وإنما أنا منفذ لله ولست بمبتدع ولكني متبع ألا إنه

لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَطَاعَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَسْتُ بِخَيْرِكُمْ وَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ أَلَا وَإِنِّي أَثْقَلُكُمْ حَمَلًا يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ أَفْضَلَ الْعِبَادَةَ أَدَاءَ الْفَرَائِضِ وَاجْتَنَابَ الْمُحَارِمِ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ [4]. فأحبه الناس لما كان فيه من خير، ومن ذلك أن سهيل بن أبي صالح قال: كنت مع أبي غداة عرفة فوقفتنا لننظر لعمر ابن عبد العزيز وهو أمير الحاج فقلت يا أبتاه والله إني لأرى الله يحب عمر قال لم؟ قلت: لما أراه دخل له في قلوب الناس من المودة وأنت سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ: "إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إن الله قد أحب فلانا فأحبهوه" (صحيح البخاري، صحيح مسلم) [5].

وكان عمر بن عبد العزيز يخاف الله، وسئلت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز عن عبادة عمر فقالت والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا أكثرهم صياما ولكن والله ما رأيت أحدا أخوف لله من عمر لقد كان يذكر الله في فراشه فيلتنفض العصفور من شدة الخوف حتى نقول ليصبحن الناس ولا خليفة لهم [4]. وقرأ عمر بن عبد العزيز بالناس ذات ليلة (والليل إذا يغشى) فلما بلغ (فأنذرتكم نارا تلظى) خنقته العبرة فلم يستطع أن ينفذها فرجع حتى إذا بلغها خنقته العبرة فلم يستطع أن ينفذها فتركها وقرأ سورة غيرها [4]. وكان رضي الله عنه رحيفا بالمسلمين، ومن ذلك أنه كتب على أبي بكر بن حزم إن كل من هلك وعليه دين لم يكن دينه في خرقه فأقض عنه دينه من بيت مال المسلمين [4]. كان يتعاهد رعيته بالنصيحة، وعند وقوع الزلازل كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار إن هذه الرجفة شيء يعتاب الله به العباد وقد كنت كتبت إلى أهل بلد كذا وكذا أن يخرجوا يوم كذا فكن استطاع أن يتصدق فيلعل فإن الله عز وجل يقول (قد أفلح من تزكى) وقال قولوا كما قال أبوك آدم (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقولوا كما قال نوح (والأغفر لي وترحمي أكن من الخاسرين) وقولوا كما قال موسى (رب إني ظلمت

نَفْسِي فَأَغْفِرْ لِي) [4].

ولقد عرف الناس الغنى في زمن عمر بن عبد العزيز ومن ذلك أن يحيى بن سعيد قال بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا ولم نجد من يأخذها مني قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس فاشترت بها رقبا فأعتقتهم وولاهم للمسلمين [4]. ومن عدله أنه قال لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه، ولا تحداث كنيسة ولا بيت نار، ولا تجر الشاة إلى مذبجها، ولا تحدوا الشفرة على رأس الذبيحة، ولا تجمعوا بين الصلاتين إلا من عذر [7].

قال معاوية بن يحيى: حدثنا أوطاة قال: قيل لعمر بن عبد العزيز: لو جعلت على طعامك أمينا لا تغتال وحرصيا إذا صليت وتتح عن الطاعون، قال اللهم إن كنت تعلم أني أخاف يوما دون يوم القيامة، فلا تؤمن خوفي [5]. وقد سمع عمر عبد العزيز وشاع بين الناس أنه سحر، فعن معروف بن مشكان عن مجاهد قال لي عمر بن عبد العزيز ما يقول في الناس؟ قلت: يقولون مسحور، قال ما أنا بمسحور، ثم دعا غلاما له فقال ويحك ما حملك على أن سقيتني السم؟ قال ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق، قال هاتها، فجاء بها، فألقاها في بيت المال وقال اذهب حيث لا يراك أحد [5]. وجاء عن زياد عن مالك قال: دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في المرضة التي مات فيها، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالة. ولا بد لهم من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إلي أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤنتهم إن شاء الله. فقال عمر أجلسوني. فأجلسوه، فقال: الحمد لله، أبالفقر تخوفني يا مسلمة؟ أما ما ذكرت أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة، فإني لم أمنعهم حقا هو لهم، ولم أعطهم حقا هو لغيرهم؛ وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى

الصالحين؛ وإنما بنو عمر أحد رجلين: رجل اتقى الله فجعل الله له من أمره يسرا ورزقه من حيث لا يتحسب، ورجل غير وفجر، فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه. ادعوا لي بنيّ، فدعوهم، وهم يومئذ اثنا عشر غلاما، فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع ثم قال: بنفسى فنية تركتهم ولا مال لهم! يا بنيّ، إني قد تركتكم من الله بخير، إنكم لا تمرّون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله، يا بنيّ، ميّلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيرا من دخول أبيكم يوما واحدا في النار؛ قوموا يا بنيّ عصمكم الله ورزقكم! قال: فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر [6]. وعن عبيد بن حسان قال لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال اخرجوا عني فقعده مسلبة وفاطمة على الباب فسمعوه يقول مرحبا بهذه الوجوه ليست بوجوه إنس ولا جان ثم تلا: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ القصص ثم هدأ الصوت فقال مسلبة لفاطمة قد قبض صاحبك فدخلوا فوجدوه قد قبض [5]. وروى عن يوسف بن ماهك قال بينا نحن نسوي التراب على قبر عمر بن عبد العزيز إذ اسقط علينا كُأب رق من السماء فيه بسم الله الرحمن الرحيم أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار. وقال الذهبي عن هذا: مثل هذه الآية لو تمت لنقلها أهل ذاك الجمع ولما انفرد بنقلها مجهول مع أن قلبي منشرج للشهادة لعمر أنه من أهل الجنة [5].

مات عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لخمس بقين من رجب بدير سمعان في سنة إحدى ومائة، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر، ومات بدير سمعان [7]. وقال هشام لما جاء نعيه إلى الحسن قال مات خير الناس [5]. فترك ورائه سيرة عطرة رحمة الله، فقال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: وكان من أئمة الاجتهاد ومن الخلفاء الراشدين رحمة الله عليه. ونلخص سيرته فقال: قد كان هذا الرجل حسن الخلق والخلق، كامل العقل، حسن السميت، جيد السياسة حريصا

على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس، ظاهر الذكاء والفهم، أوهاً منيباً قانتاً لله خفيفاً، زاهداً مع الخلافة، ناطقاً بالحق مع قلة المعين وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملوه وكرهوا محافقته لهم ونقصه أعطياتهم وأخذهم كثيراً مما في أيديهم مما أخذوه بغير حق، فما زالوا به حتى سقوه السم فحصلت له الشهادة والسعادة، وعد عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين والعلماء العاملين [5]. وقال عنه ميمون بن مهران إن الله كان يتعاهد الناس بنبي بعد نبي وإن الله تعاهد الناس بعمر بن عبد العزيز [5]. وقال حرملة سمعت الشافعي يقول الخلفاء خمسة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز وفي رواية الخلفاء الراشدون وورد عن أبي بكر بن عياش نحوه وروى عباد بن السماك عن الثوري مثله [5]. وعن عبد الرحمن بن زيد عن عمر بن أسيد قال والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول اجعلوا هذا حيث ترون فما يبرح يرجع بماله كله قد أغنى عمر الناس [5]. وقال فيه حماد بن واقد سمعت مالك بن دينار يقول الناس يقولون عني زاهد إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتمه الدنيا فتركها [5]. وفي الزهد لابن المبارك أخبرنا إبراهيم بن نشيط حدثنا سليمان بن حميد عن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع أنه دخل على فاطمة بنت عبد الملك فقال ألا تخبريني عن عمر؟ قالت ما أعلم أنه اغتسل من جنابة ولا احتلام منذ استخلف [5]. وعن ابن المبارك عن هشام بن الغاز عن مكحول لو حلفت لصدقت ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز [5].

وولي يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة [6]. فزاد الظلم بعد ذلك.

3.7 الحساب في زمن الحكم الرشيد

البحث والعناية بعلم الحساب هو غاية جلييلة ومهمة عظيمة أعتنى بها المسلمون اللاحقون في زمن الخليفة الراشد هارون الرشيد التي أسس دار الحكمة في بغداد العراق حتى أصبح المسلمين في ذلك الوقت روادا في علم الحساب والذي كان مفتاحا لهم لشتى العلوم الأخرى حتى عرف ذلك الزمان بالعصر الإسلامي الذهبي. ومن أبرز من بحث وألف في علم الحساب هو العالم الفذ محمد بن موسى الخوارزمي رحمه الله تعالى والذي وصل صيته أقطاب الأرض حتى دخل أسمه معاجم وقواميس كافة اللغات الأخرى. فاللوغرتميات جاءت من الترجمة اللاتينية لإسمه وهو ما عرف عند العرب المتأخرين بالخورزميات. وهذا مفهوم يبنى عليه كافة الحسابات المركبة والمعقدة التي نراها اليوم من أنظمة الحساب والمنطق بشتى أنواعها بما فيها أنظمة الصواريخ والطيران وحتى أنظمة الذكاء الاصطناعي. وقد ألف الخوارزمي كتابه "المختصر في الجبر والمقابلة" وكان هذا الكتاب نافعا للمسلمين وغيرهم وهو أساس تقدم البشرية في شتى المجالات إلى يومنا هذا. ولهذا سمي علم الموازنة والمقابلة بعلم "الجبر" كما سماه الخوارزمي بذلك وتمت إضافة كلمة "الجبر" أيضا إلى كافة معاجم اللغات الأخرى. ويعتبر الخوارزمي إلى يومنا هو مؤسس علم الجبر والحساب والخورزميات ومن أهم علماء الحساب في تاريخ البشرية.

وللأسف فقد غاب وغيب على أغلب المسلمين في زماننا هذا أهمية ميراث الخوارزمي في علم الجبر والحساب. وهو ميراث حري بنا جمع شتاته وإعادة بناء أركانه لتقوم الأمة بالميزان الذي أمرنا الله به. فقد جهل الكثير من المسلمين ميراث الخوارزمي حتى بخس قدره ونسي علمه فكان بين مفرد أو مدلس. ومن ذلك ضياع كتابه في الجبر والمقابلة من المسلمين حتى تمت طباعة أول نسخة عربية منه في عام 1939م (1357هـ) بناء على النسخة الأصلية الوحيدة التي سرقت من مصر ونقلت إلى بريطانيا

والتي يرجع تاريخها إلى عام 1439م (843هـ) أي بعد وفاة الخوارزمي بحوالي 500 عام شمسية. ليرجع لنا كتاب الخوارزمي بعد حوالي ألف عام من تأليفه. وفي كل هذه الأعوام ترجم كتابه إلى شتى اللغات ومنها الإنجليزية والألمانية والفرنسية وأصبحت مرجعا لجميع الحضارات الأوروبية وغيرها. ليتفاجأ المسلمون بوجود كلمات عربية في هذه الثقافات ومنها algorithms والتي تعني الخوارزميات وكلمة algebra وهي الجبر في معجم اللغة الإنجليزية على سبيل المثال لا الحصر.

ومن التدليس الذي تعرض له الخوارزمي في تقديم كتابه هو نسبة عمله إلى الحضارة المصرية في طرح مخالف للطرح الذي وضعه الخوارزمي في كتابه. وهذا ليس إلا إحقاقا للحق ولا يجب أن يحمل هذا على محمل الإستنقاص لمن نقل هذا العمل لنا تقديما وتعليقا فجزاهم الله خير الجزاء. ومن التدليس أيضا طرح كتابه في الحساب مجردا من الغاية التي كتب لها ومنه عدم ذكر سبب تأليف كتابه في الجبر والذي كان في الأساس سعيًا منه رحمه الله لتحقيق الحكم الرشيد بناء على الحساب الصحيح في الميراث والبيع والشراء والكرء وما يتعلق بذلك من حساب المسافات والأرض. ولتبيين طرح الخوارزمي نضع مقدمة كتابه رحمه الله والتي جاء فيها:¹

¹ مع تصريف يسير من حذف لكلمات التي تخالف السياق وفي الغالب قد يظن انها أخطاء خلال النسخ.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب وضعه محمد بن موسى الخوارزمي افتتحه بأن قال:

الحمد لله على نعمه بما هو أهله من محامده التي بأداء ما افترض منها على من يعبده من خلقه يقع اسم الشكر ويستوجب المزيد إقرارا بروبوته وتذلا لعزته وخشوعا لعظمته. بعث محمدا صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالنبوة على حين فترة من الرسل نورا من الحق ودروس من الهدي فبصر به من العمى واستنقذ به من الهلكة وكثر به بعد قلة وألف به بعد الشتات.

تبارك الله ربنا وتعالى جده وتقديست أسمائه ولا إله غيره، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم. ولم تزل العلماء في الأزمنة الخالية والأمم الماضية يكتبون الكتب مما يصنفون من صنوف العلم ووجوه الحكمة نظرا لمن بعدهم واحتسابا للأجر بقدر الطاقة ورجاء أن يلحقهم من أجر ذلك وذخره وذكره ويبقى لهم من لسان صدق ما يصغر في جنبه كثير مما كانوا يتكفلونه من المؤونة ويحملونه على أنفسهم من المشقة في كشف أسرار العلم وغامضه. إما رجل سبق إلى ما لم يكن مستخرجا قبله فوريته من بعده. وإما رجل شرح مما أبقي الأولون ما كان مستغلقا فأوضح طريقه وسهل مسلكه وقرب مأخذه. وإما رجل وجد في بعض الكتب خلا فلا شعثه وأقام أوده وأحسن الظن بصاحبه غير راد عليه ولا مفتخر بذلك من فعل نفسه.

وقد شجعتني ما فضل الله به الامام المأمون أمير المؤمنين مع اخلافة التي حاز له إرثها وأكرمه بلباسها وحلاه بزينتها. من الرغبة في الأدب وتقريب أهله وإدنائهم وبسط كنفه لهم ومعونته إياهم على إيضاح ما كان مستبهما وتسهيل ما كان مستوعرا. على أن ألفت من كتاب الجبر والمقابلة كتابا مختصرا حاصرا لللطيف الحساب وجليله لما يلزم الناس من الحاجة إليه في مواريثهم ووصاياهم وفي مقاسمتهم وأحكامهم وتجارتهم. وفي جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين وكرى الأنهار والهندسة وغير ذلك من وجوه وفنونه. مقدما لحسن النية فيه وراجيا لأن ينزله أهل الأدب بفضل ما استودعوا من نعم الله تعالى وجليل آلائه وجميل بلائه عندهم منزلة وبالله توفيتي في هذا لا في غيره عليه توكلت وهو رب العرش العظيم وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين.

وعليه يلزم أن الخوارزمي رحمه الله إنما ألف كتابه هذا لتوضيح علم الحساب الصحيح الذي يحتاج إليه الناس في أمور دينهم ودنياهم. فقد افتتح الخوارزمي رحمه الله كتابه بالبسملة متبعا سنة الأنبياء في ذلك. وكان رحمه الله حريصا وراجيا بأن يعتنى أهل الأدب بهذا الكتاب ويعطونه حقه وينزلونه منزلته لما علم ما فيه من أسس وقواعد لا غنى عنها في علم الحساب الصحيح. وختم مقدمته سائلا الله التوفيق في ذلك ومتوكلا عليه. وبهذا يتبين حسن مقصد الخوارزمي من تأليف كتابه فنسأل الله العلي العظيم أن يرحمه رحمة واسعة وأن يرفع قدره في الجنة وأن يجزيه عنا خير الجزاء.

فبدأوا بالعناية بعلم الحساب وجمع مؤلفاته من كافة أقطاب الدنيا فعكفوا على ترجمتها حتى فهموها وعقلوها وعرفوا ما شابهها من خطأ ونقصان. فأسسوا نظام الأرقام الذي نعرفه اليوم فقسّموا الأرقام إلى أرقام فردية وأسسوا علم الجبر وحساب المثلثات وغيرها من علوم الحساب بشكل لم تعرفه البشرية من قبل. وكان ذلك سببا في تحقيق الحكم الرشيد في المعاملات والبيع والشراء والكراء. فكان علم الحساب مفتاحا في تطور المسلمين في شتى مجالات الدنيا ومنها مجال الهندسة والطب في العصر الإسلامي الذهبي.

سيرة هارون الرشيد المحيدان

الفوزان

كلام الفوزان في المأمون غرر به المعتزلة

ومن الحكم الرشيد مصالحة الكفار لدرء المفاصد كما في العهد المكي وفيه أيضا ان النجاشي لم يكن مسلم ولا يظلم عنده أحد فهو حقق العدل

3.8 عودة الحكم الرشيد في آخر الزمان

قال: كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلُّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْفُرُونَ. قالوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قال: فُوا بَبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، أَعْطَوْهُمْ حَقَّهُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرَعَاهُمْ.

يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده. الراوي : أبو سعيد الخدري وجابر بن عبد الله | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم الصفحة أو الرقم: 2913 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]
 مِنْ خُلَفَائِكُمْ خَلِيفَةٌ يَحْتُو الْمَالَ حَتَّى، لَا يَعُدُّ عَدَدًا. وفي رواية ابن حجر: يَحْتِي الْمَالَ. الراوي : أبو سعيد الخدري | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم : 2914 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

3.9 معادلات

فيما يلي مثال على معادلة رياضية:

$$E = mc^2 \quad (1)$$

ومثال آخر على معادلة معقدة:

$$\int_0^{\infty} e^{-x^2} dx = \frac{\sqrt{\pi}}{2} \quad (2)$$

3.10 نص الفصل الأول - الصفحة الثانية

هذه الصفحة الثانية للفصل الأول تحتوي على نص إضافي لتوضيح كيفية تنسيق النصوص في كتب اللاتكس باللغة العربية.

3.11 نص الفصل الأول - الصفحة الثالثة

هذه الصفحة الثالثة للفصل الأول تحتوي على المزيد من النصوص لاختبار تقسيم الصفحات وظهور الرؤوس والأقدام بشكل صحيح في النصوص العربية.

علم الحساب

4.1 مقدمة

هذه هي المقدمة للفصل الأول.

4.2 أمثلة حسابية من القرآن والسنة

4.2.1 مكوث أهل الكهف

يقول جل جلاله عن مدة مكوث أهل الكهف في سورة الكهف: وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ الكهف. فقد يسأل السائل لماذا جاء النص مع "وازدادوا تسعا" وهذا فيه الحكمة البالغة منه سبحانه. فمن المعلوم أن الرسول ﷺ كان مخاطبا لأهل الكتاب وأن أهل الكتاب يستعملون السنوات الشمسية وأما المسلمين فهم يستعملون السنوات القمرية. فالمطلوب هنا حساب المدة بعدد السنوات الشمسية ليوافق ذلك حساب أهل الكتاب وتحويل ذلك إلى عدد السنوات القمرية الذي

يستعمله المسلمون في تاريخهم. وبالحساب الصحيح يتبين الآتي:

عدد الأيام في السنة القمرية = 354 يوم

عدد الأيام في السنة الشمسية = 365 يوم

وبهذا يكون الفارق في عدد الأيام بينهما = 11 يوم

وعليه يكون في المئة سنة شمسية 36500 يوم وفي المئة سنة قمرية 35400 يوم. الفارق هو 1100

يوم. بتقسيم هذا الفارق على 354 نجد أن الفارق هو 3 سنوات قمرية. وبهذا يعلم أن لكل 100 سنة

شمسية توجد 103 سنة قمرية تقريبا. وعليه يكون في كل 300 سنة شمسية هناك 309 سنة قمرية.

ويكون الفارق هو فقط تسعة سنوات ولهذا جاء لفظ "وازدادوا تسعا" للبيان فهي 300 سنة شمسية

بالنسبة لأهل الكتاب وزيادة عليها 9 سنوات لتوافق بذلك 309 سنة قمرية بالنسبة للمسلمين. وهذا ما

يعرف في علم الحساب بوحدة قياس الأعداد. فبالحساب يمكن تحويل وحدة قياس من نوع إلى آخر.

وفي هذا المثال كانت وحدة القياس هي الزمن وبه علم التحويل من القياس الشمسي إلى القياس

القمرى والخلاف بينهما لا يعني التعارض بل لكل وحدة قياس حسابها الخاص. وهذا فيه بيان

حكمة الله وعلمه سبحانه وأن كلامه هو الحق لهذا جاء بعد هذه الآية قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا

لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا

﴿٢٦﴾ الكهف. ويقول ابن كثير في تفسير الآية التي ذكر فيها عدد السنوات: هذا خبر من الله تعالى

لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل

ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن

تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمائة: (وازدادوا

تسعا) [هـ].

4.2.2 مكوث الوحي من عيسى عليه السلام إلى محمد ﷺ

وفي مثال آخر يشه المثل السابق في تفسير قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قَتَرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ المائدة. يقول ابن كثير في تفسيره عن هذا: (على فترة من الرسل) أي: بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم. وهو أنه ستمائة سنة. ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة. ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، والآخر أراد قرية، وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنين؛ ولهذا قال تعالى في قصة أصحاب الكهف: وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ الكهف. أي: قرية، لتكامل الثلاثمائة الشمسية التي كانت معلومة لأهل الكتاب [هـ]. ولهذا فقد فهم المفسرين رحمهم الله بالقران الفرق بين عدد السنوات الشمسية والقمرية كما تقدم. وفيه أيضا غناية السلف رحمهم الله بالحساب وحساب الزمن وتحويله من وحدة قياس إلى أخرى.

4.2.3 عدد ساعات اليوم واللييلة

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً، لَا يُوجَدُ فِيهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا إِلَّا آتَاهُ إِيَّاهُ فَاتَّخَذَهَا آخِرَ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ. (أبو داود (1048)، والنسائي (1389) وصححه الألباني). وفيه أن النبي ﷺ علم أن عدد ساعات اليوم بالمتوسط هو 12 ساعة. فإن كان لعدد ساعات اللييلة مثل ذلك كانت عدد ساعات اليوم واللييلة معا 24 ساعة. وهذا ما اعتاد عليه الناس في زماننا من حساب عدد ساعات اليوم واللييلة. فإن ساعات اليوم واللييلة تطول وتقصر خلال العام وتتغير بتغير المكان ولكن بالإجمال فهي 24 ساعة. وهذا فيه دليل نبوته ﷺ ففي زمانه لم يكن هناك الساعات

الدقيقة التي نعرفها اليوم.

وعدد ساعات اليوم والليل تضبط بالتاريخ الشمسي كما موضح في

وكما موضح أن الأماكن القريبة من القطبين يغيب فيها النهار أو الليل خلال 24 ساعة وبهذا يمضي اليوم كاملاً ويتعذر ضبط أوقات الصلاة بالطريقة المعتادة. وقد رخص أهل العلم على جواز ضبط وقت الصلاة فيها كما اعتاد الناس في سائر أوقات السنة أو قياساً على غيرها من الأماكن. فعن التَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكَلَابِيِّ، قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ فَقَالَ "إِنْ يَخْرُجَ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَيِّجُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجَ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَأَمْرُؤُ حَيِّجُ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ فَإِنَّهَا جَوَارِكُكُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ". قُلْنَا وَمَا لُبُّهُ فِي الْأَرْضِ قَالَ "أَرْبَعُونَ يَوْمًا يَوْمٌ كَسَنَةٌ وَيَوْمٌ كَشْهَرٌ وَيَوْمٌ جَمْعَةٌ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ". فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَتْ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ قَالَ "لَا أَقْدِرُوا لَهُ قَدْرَهُ ثُمَّ يَنْزِلُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابٍ لِدِّ فَيَقْتُلُهُ" (صححه الألباني). وفي هذا يقول الشيخ ابن باز رحمه الله: الواجب على سكان هذه المناطق التي يطول فيها النهار أو الليل أن يصلوا الصلوات الخمس بالتقدير إذا لم يكن لديهم زوال ولا غروب لمدة أربع وعشرين ساعة، كما صح ذلك عن النبي ﷺ في حديث النّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، المخرج في صحيح مسلم في يوم الدجال الذي كسنته، سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: اقدروا له قدره. وهكذا حكم اليوم الثاني من أيام الدجال، وهو اليوم الذي كشهروا، وهكذا اليوم الذي كاسبوعاً. أما المكان الذي يقصر فيه الليل ويطول فيه النهار أو العكس في أربع وعشرين ساعة فحكمه واضح: يصلون فيه كسائر الأيام، ولو قصر الليل جداً أو النهار؛ لعموم الأدلة، والله ولي التوفيق [هـ]. وهذا فيه أهمية الحساب وتسجيل بيانات أوقات الصلاة حتى يمكن تقديرها تقديراً صحيحاً بقدر المستطاع إن تعذر معرفة ذلك من بغياب الليل أو النهار خلال 24 ساعة كما في فتنة المسيح الدجال.



شكل 1.4: عدد ساعات النهار بحسب خطوط العرض

4.2.4 نسبية الوقت في القرآن

قال تعالى في كتابه: وَيَسْأَلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ الحج. ويقول ابن كثير في تفسيره: هو تعالى لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه. وهذا فيه الدليل على أن حساب الوقت نسبي ويختلف كما أخبر الله سبحانه وتعالى في أكثر من موضع. ومن ذلك قوله تعالى: يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥٥﴾ السجدة. وأيضا قوله تعالى: تَرْجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤١﴾ المعارج. ففي هذه الآيات الدليل الواضح على أن الوقت لا يجري بنفس السرعة فبين الله تعالى ذلك بالنسبة لوقتنا في قوله "مما تعدون".

ويمكن توضيح ذلك المعنى عن طريق حساب فارق الوقت بين الجنة والأرض. فإن حملنا معنى

"عند ربك" أي في الجنة كما في قوله: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ آل عمران، فهذا يكون لكل يوم واحد في الجنة ألف سنة مما نعد في الأرض كما يلي:

$$1 \text{ يوم في الجنة} = 1000 \text{ سنة في الأرض}$$

نبدأ أولاً بتحويل اليوم الواحد إلى ثواني، فإن علمنا أن اليوم به 12 ساعة بالمتوسط (اليوم والليلة معا 24 ساعة) كما في المثال السابق، وأن الساعة بها 60 دقيقة وأن الدقيقة بها 60 ثانية، عليه يكون اليوم الواحد به 43200 ثانية. ثانياً نحسب عدد الأيام في كل 1000 سنة. فإن إستخدمنا عدد الأيام في السنة القمرية يكون عدد الأيام الكلي في كل 1000 سنة قرية 354000 يوم. وإبقاء الميزان وإستبدال وحدات القياس يكون الناتج:

$$43200 \text{ ثانية في الجنة} = 354000 \text{ يوما في الأرض}$$

فإن قسمنا عدد الثواني في الجنة على عدد الأيام يكون:

$$1 \text{ ثانية في الجنة} = 8.1944 \text{ يوما في الأرض}$$

وعليه بمرور ثانية واحدة في الجنة تمر علينا 8 أيام و4 ساعات و39 دقيقة و22 ثانية في الأرض مما نعد ونحسب. وهذا لا يجب أن يفهم أن الوقت في الجنة بطيء جداً بالنسبة لمن هو في الجنة ولكن فقط بالنسبة للأرض. فالوقت هو نفسه كوحدة قياس ولكن قياس نفس القيمة في نطاق مختلف لا يلزم التساوي وإنما كل قياس يرجع لنطاقه الذي قيس فيه.

وهذه الظاهرة تم إكتشافها حديثاً في بداية القرن العشرين على يدي العالم الفيزيائي ألبرت آشتاين وتعرف بظاهرة التمدد الزمني وهي جزء من النظرية النسبية. وهي ظاهرة مثبتة ويمكن حسابها بدقة

باستخدام مفاهيم معروفة وأهمها ثابت سرعة الضوء في الفراغ. وهي ظاهرة مهمة جداً وتستخدم لموائمة أنظمة الإتصال وأنظمة تحديد الموقع مع الأقمار الصناعية. بدون الأخذ بعين الإعتبار ظاهرة التمدد الزمني كل هذه الأنظمة تتعطل.

ومن المثبت أيضاً في النظرية النسبية أن مرور الوقت نسبي وهو يبطأ مع زيادة السرعة أو الجاذبية. ومن المعلوم أن الجاذبية تزداد مع زيادة كتلة الكواكب. وبهذا يعلم أن الوقت على القمر يمر أسرع بقليل بالنسبة للأرض بينما الوقت على الأرض يمر أسرع بالنسبة للشمس. وهذا الفارق يزيد من زيادة الفرق في الحجم. وعليه فإن مرور الوقت في الجنة أبداً بكثير من الأرض دل على عظم الجنة بالنسبة للأرض. وهذا يتوافق مع قوله تعالى: وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ آل عمران.

4.2.5 ظاهرة الغلاف الجوي

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَيُّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ يس.

4.2.6 ظاهرة تعاقب الليل والنهار

تَوَلَّجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ آل عمران.

يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ النور.

4.2.7 ظاهرة توسع الكون

من أعظم بلايا هذا الزمان هو تصوير ووضع العلم في إطار منفصل عن الإيمان بل والاسوأ في إطار انكار وجود الخالق وهذا والله من اعظم الضلال والجهل.

بينما في الحقيقة العلم هو الطريق للتأمل في آيات الله الكونية والتي جميعها تنادي بوجود الخالق وقدرته وعظمته. فكل ما نراه من تناسق في هذا الكون من ليل ونهار وشمس وقر ومطر وشجر وحجر ودواب كلها من آيات الله الكونية.

ومن اعظم آيات الله الكونية أن الله عز وجل لم يجعل السماء ثابتة بل جعلها تتوسع فلو كانت ثابتة لقال الكثير ان هذا الكون ليس له بداية وهي ثابتة ازلا وبهذا يتكرون وجود الخالق. ولكن الله جل جلاله جعل السماء تتمدد ليكون هذا التمدد دليلا على ان اطراف السماء كلها جاءت من نقطة واحدة وهذا هو الدليل القاطع على بداية الكون.

الإقرار بأن هذا الكون له بداية كما تشير كل الأدلة والمفاهيم التي توصل لها البشر في القرن العشرين ومنها ما جاء في نظرية الانفجار العظيم يبطل كل ما تم طرحه من أصحاب النظريات الإلحادية إذا يتعذر على شي له بداية أن يبدأ من لا شيء.

قال تعالى: أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ [الأنبياء: 30]

فقد اتفق المفسرون على ان معنى هذه الآية ان السماوات والأرض كانتا ملتصقتين وهذا ما يتوافق مع فهمنا اليوم بناء على المشاهدة أن الكون بدأ من نقطة واحدة.

فقد جاء في تفسير القرطبي ان ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة قالوا في تفسير هذه الآية: يعني أنها كانت شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء. وكذلك قال كعب: خلق الله السماوات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحاً بوسطها ففتحتها بها ، وجعل السماوات سبعة والأرضين سبعة. وقول ثان قاله مجاهد والسدي وأبو صالح: كانت السماوات مؤتلفة طبقة واحدة ففتقتها فجعلها سبع سماوات، وكذلك الأرضين كانت مرتبة طبقة واحدة ففتقتها فجعلها سبعة وقال الطبري في تفسير هذه الآيات: أو لم ينظر هؤلاء الذي كفروا بالله بأبصار قلوبهم، فيروا بها، ويعلموا أن السماوات والأرض كانتا رتقا: يقول: ليس فيهما ثقب، بل كانتا ملتصقتين، وقد جاء في تفسير ابن كثير:

ألم يروا (أن السماوات والأرض كانتا رتقا) أي: كان الجميع متصلاً ببعضه ببعض متلاصقاً متراكماً، بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ، ففتقت هذه من هذه. فجعل السماوات سبعة، والأرض سبعة، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمرت السماء وأثبتت الأرض: ولهذا قال: (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً ، وذلك دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء

ويقول جل جلاله: وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ [الذاريات: 47]

وقد جاء في تفسير السعدي رحمه الله: بِأَيْدٍ أي: بقوة وقدرة عظيمة وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ لأرجائها وأنحاءها،

4.2.8 ظاهرة المجال المغنطيسي

وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْفًا مَحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ الأنبياء.

الحساب الكوني

5.1 مقدمة

إن أفضل طريقة لفهم علم الحساب هو التأمل والتفكر في الظواهر الطبيعية التي خلقها الله وومحاولة حسابها. فهي المرجع لنا حتى نتحقق من صحة وسلامة الحساب. وهذا النهج هو نهج القرآن وهو أفضل الطرق وأحسنها. ويمكن دراسة علم الحساب مجردا من أي تطبيقات وهذا أيضا نهج معروف. ولكن الجمع بين علم الفيزياء والحساب لمحاولة محاكاة الظواهر الطبيعية من أفضل الطرق لتطوير علم الحساب. وهذا معروف حيث تفوق الباحثين الذين جمعوا بين الحساب والفيزياء مثل نيوتن وأينشتاين وفورير على غيرهم ممن درس علم الرياضيات المجرد فكانوا روادا في ذلك.

ولهذا يكون الطريق للبحث وفهم علم الحساب كما يلي:

1. التفكير في آيات الله الكونية والتأمل فيها ومحاولة فهمها وربطها ببعضها البعض على وجه الإجمال.

2. حساب هذه الظواهر على إنفراد ومع التدرج في التعقيد حتى يمكن حسابها بالدقة المطلوبة

ومن عدة طرق وجوانب.

3. الجمع بين الظواهر المترابطة ومحاولة فهم ترابطها وتأثيرها على بعضها البعض وحساب ذلك لبناء

فهم أكثر شمولاً ودقة.

4. تلخيص القواعد الحسابية بناءً على ما سبق وتطبيقها في فهم ظواهر أخرى أكثر تعقيداً أو

تصحيح الحساب فيما ينفع الناس في أمور دينهم ودنياهم.

5.2 جداول

فيما يلي مثال على جدول:

العنوان 1	العنوان 2	العنوان 3
الخلية 1	الخلية 2	الخلية 3
الخلية 4	الخلية 5	الخلية 6

جدول 1.5: مثال على جدول

5.3 مراجع باستخدام BibTeX

لإضافة مراجع باستخدام BibTeX، يمكن استخدام الملف التالي: `references.bib`

```
@book{example
```

```
author = "المؤلف",
```

```
title = "عنوان الكتاب",
```

```
publisher = "دار النشر",
```

```
year = "السنة"
```

```
}
```

ثم تضمين المراجع في المستند الرئيسي:

```
\bibliographystyle{plain}
```

```
\bibliography{references}
```

5.4 نص الفصل الثاني - الصفحة الثانية

هذه الصفحة الثانية للفصل الثاني تحتوي على نص إضافي لاختبار تقسيم الصفحات وظهور الرؤوس والأقدام بشكل صحيح في النصوص العربية.

5.5 نص الفصل الثاني - الصفحة الثالثة

هذه الصفحة الثالثة للفصل الثاني تحتوي على المزيد من النصوص لاختبار تقسيم الصفحات وظهور الرؤوس والأقدام بشكل صحيح في النصوص العربية.

الذكاء الاصطناعي

6.1 مقدمة

6.2 المعرفة والوعي والإدراك

هناك نقاش مهم يتعلق بموضوع ما إذا كانت نماذج الذكاء الاصطناعي العام ستكون قادرة على المعرفة والإدراك والوعي في المستقبل القريب (تقريباً مع حلول 2030). وحيث أن أنه على عدة أمور وخاصة للمسلمين.

أغلب الباحثين في مجال الذكاء الاصطناعي يعتقدون أن نماذج الذكاء الاصطناعي العام والتي ستكون لها قدرات معرفية تتجاوز قدرة الإنسان في جميع المجالات، ستكون قادرة على الإدراك وسيكون لها وعي. وبطريقة غير مباشرة هذا ما هو إلا مقدمة للقول بأن هذه النماذج لها أرواح مثلها مثل البشر.

بالمختصر هذا أمر خطير يمس عقيدة المسلمين، والشرح كالآتي.

أولا يجب التنويه لأمر هام جدا ألا وهو أن المعرفة والإدراك والوعي كلها تتطلب مشاعر وهي أمور تختص بها الروح والتي هي من أمر الله التي بها يبث الله الحياة في خلقه. وهذا معروف بما نعلمه عن الروح بما دلت عليه البراهين في الكتاب والسنة من أن الروح تنفخ في الجنين في بطن أمه وتصعد إلى السماء وتهبط وتقبض في النوم وترسل وتعذب في القبر وتضرب ضربة يسمعها كل شيء إلا الثقلين. فالأنس والجن والحيوانات كلها ذات أرواح وتكون حية فقط عند وجود الروح في الجسد وتموت بمفارقة الروح الجسد. وهذا موضوع بحث فيه الإمام ابن القيم في كتابه الروح لمن أراد أن يطلع. وقد ذكر الشيخ ابن باز رحمه الله أن الحياة نوعا: حياة روح وحركة مثل الإنسان والحيوان والجن وحياة نمو فقط مثل النباتات وهي ليس لها خصائص حياة الروح مثل السمع والبصر والحركة. أنظر الرابط أول التعليق.

ولهذا فإن الإدعاء بأن نماذج الذكاء الإصطناعي العام سيكون لها وعي وإدراك بمعنى القدرة على الإحساس والاستقلال بذاتها كما هو معروف من خصائص الروح هو أمر ينافي عقيدة المسلمين. القدرات المعرفية الخارقة المجردة من الإحساس لا تلزم الوعي والإدراك. فالحاسب الإلي له قدرة كبيرة لحفظ ومعالجة وتحليل كميات كبيرة من البيانات وتزداد هذه القدرة مع زيادة القدرة الحاسوبية والتخزينية. ولكن هذا لا يجعل الحاسب واعي أو مدرك.

الملحق

7.1 مسألة العدل مع الكفار

الدولة الكافرة العادلة لها وعليها، فيدم كفرها ويحمد عدلها، ولا يرد عليها كل أمرها، بل يحمد ما فيها من العدل والإنصاف والمحاسن الإنسانية الموافقة للفطرة، ويذم ما فيها من كفر وفسق وعدوان على دين الله ورسله وهذا ما أوصانا به جل جلاله في كتابه العظيم فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ^ط وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ ^ج أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ المائدة. وقال القرطبي في تفسيره: ودلت الآية أيضا على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه. وقال ابن كثير في تفسيره: وقوله: (ولا يجرمكم شَنَا ن قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا) أي: لا يجعلكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقا كان أو عدوا [هـ].

وقول شهادة الحق في الدولة الكافرة لا يعني موالاتها وإن كانت عادلة، بل هذا ما هو إلا شهادة الحق وقد تقدم بيان ذم ما فيها من كفر وفسق وعصيان لدين الله ورسله. وهذا لأن الله جل جلاله أمرنا بالعدل في القول ولو على أنفسنا فقال جل في علاه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ

شُهِدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ^ج إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا^ط فَلَا تَتَّبِعُوا
 الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ النساء. وقد جاء في
 تفسير ابن كثير: وقوله (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) أي: فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغضة الناس
 إليكم، على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: (ولا
 يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) [المائدة: 8] [هـ]. ومن ذلك ما صح عن
 جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: أفاء الله عز وجل خير على رسول الله صلى الله عليه وسلم،
 فأقرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كانوا، وجعلها بينه وبينهم، فبعث عبد الله بن رواحة،
 فخرصها عليهم، ثم قال لهم: يا معشر اليهود، أنتم أبغض الخلق إلي، قتلتم أنبياء الله عز وجل، وكذبتم
 على الله، وليس يحبني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألف وسقي من تمر، فإن
 شئتم فلکم، وإن أبيت فلي، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض، قد أخذنا، فخرجوا عنا. (صحيح على
 شرط مسلم، تخریج المسند لشعيب، تخریج سنن الدارقطني). وهذا فيه أن اليهود عرفوا أنه بالعدل قامت السموات
 والأرض وهذا ما سبق بيانه في الميزان الكوني، وأن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أقام فيهم
 الميزان الشرعي وأقر لهم بذلك بعدله معهم.

وقد جاء في تفسير الطبري عن ابن عباس قوله: "كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم
 أو الوالدين والأقربين"، قال: أمر الله المؤمنين أن يقولوا الحق ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبناءهم، ولا
 يحابوا غنياً لغناه، ولا يرحموا مسكيناً لمسكنته، وذلك قوله: "إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا
 تتبعوا الهوى أن تعدلوا"، فتذروا الحق، فتجوروا [هـ]. وأيضاً جاء في تفسير الطبري: حدثنا سعيد،
 عن قتادة: "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله" الآية، هذا في الشهادة. فأقم الشهادة،
 يا ابن آدم، ولو على نفسك، أو الوالدين، أو على ذوي قرابتك، أو شرف قومك. فإنما الشهادة لله

وليست للناس، وإن الله رضي العدل لنفسه، والإقساط والعدل ميزانُ الله في الأرض، به يردُّ الله من الشديد على الضعيف، ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على الحق. وبالعدل يصدِّق الصادق، ويكذب الكاذب، ويردُّ المعتدي ويُرِنُّه، تعالى ربنا وتبارك. وبالعدل يصلح الناس، يا ابن آدم "إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما"، يقول: أولى بغنيكم وفقيركم. قال: وذكر لنا أن نبيَّ الله موسى عليه السلام قال: "يا ربِّ، أي شيء وضعت في الأرض أقلّ؟"، قال: "العدلُ أقلُّ ما وضعت في الأرض". فلا يمنعك غنى غنيٍّ ولا فقر فقير أن تشهد عليه بما تعلم، فإن ذلك عليك من الحق، وقال جل ثناؤه: " فالله أولى بهما " [هـ].

7.2 مسألة الخروج على ولي أمر المسلمين

إن من المسائل المهمة لأمة الإسلام بالعموم هي مسألة الخروج على ولي أمر المسلمين. فهذه مسألة خطيرة وعظيمة يجب ألا يتكلم فيها إلا بعلم. وقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على الدولة المسلمة الظالمة وبالأخص لما يترتب على ذلك من ظلم الذي يخالف الميزان الفطري والذي به يكون فساد المصالح العامة في الدنيا كسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الأعراض، والتي هي أشد ظلماً في الدنيا من الظلم الذي يكون بخالفة الميزان الديني كمنع الزكاة أو الحكم بغير ما أنزل الله من باب الهوى. وقد تقدم معنا أن الله جل جلاله قدم في الدنيا إقامة الميزان بين الناس بالعدل على إقامة الحق في نفوس الناس لتقديم المصلحة العامة على الخاصة. ولذلك فقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على ولاة الأمر المسلمين ولو كانوا ظالمين وعاصين لله ولرسوله ما أقاموا فينا الصلاة وكفى بنا أن نبغضهم في الله على ما عصوا به الله ورسوله كما جاء عن عوف بن مالك الأشجعي أن النبي ﷺ قال: خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ،

وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشَرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تَبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وَلَا تَكُمُ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ، فَارْكُوهَا عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى، قَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَأَهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلْيَكْرَهُ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ (صحيح مسلم، وصححه الألباني في تخریج صحاب السنة).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله أن النبي ﷺ قال: يَكُونُ بَعْدِي أُمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلَا يَسْتَنْوُونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رَجُلٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثَمَانِ إِنْسٍ، قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ، وَأَخَذَ مَالَكَ، فَاسْتَمِعْ وَأَطِيعْ (صحيح مسلم). وقد أوصى بذلك النبي ﷺ في حجة الوداع فمن أم الحصين الأحمسية أنها قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ أَمَرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مَجْدَعٌ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا مَا أَقَامَ لَكُمْ كِتَابَ اللَّهِ (صحيح الترمذي، وصححه الألباني). وأيضاً حديث العرابض بن سارية رضي الله عنه أنه قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجَلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مَوْدِعٌ فَاذَا تَعَاهَدُوا إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ فَإِنَّهُ مِنْ يَعِشُ مِنْكُمْ يَرِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ (صحيح الترمذي، وصححه الألباني).

فالأدلة في نهي الرسول ﷺ على الخروج على الولاة العصابة كثيرة جداً، فلا يسعنا الخروج على ولاة الأمر الظالمين والعاصين لله ورسوله ليس مجاملة أو حبا لهم ولا مهادنة في دين الله وإنما إلزاماً بأمر النبي ﷺ حقناً للدماء وتقديماً للمصلحة العامة على الخاصة، ولكن نبغضهم في الله على ما عصوا به

الله ورسوله ولا نصدقهم ولا نعينهم على ظلمهم كما صح ذلك عن النبي ﷺ أنه قال لكعب بن عجرة: أعاذك الله من إمارة السفهاء، قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: أمراء يكونون بعدي، لا يقتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، فمن صدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا مني، ولست منهم، ولا يردوا عليّ حوزي، ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يُعينهم على ظلمهم، فأولئك مني وأنا منهم، وسيردوا عليّ حوزي (صحيح ابن حبان). ويكفي ولي الأمر المسلم الظالم ذلاً وخسراناً أن النبي ﷺ قد تبرأ منه كما جاء في حديث سعد بن تميم أنه قيل: يا رسول الله، ما للخليفة من بعدك؟ قال: مثل الذي لي، ما عدل في الحكم، وقسط في القسط، ورحم ذا الرحم، فمن فعل غير ذلك فليس مني ولست منه (صحيح، تخرّج سنن أبي داود، وصححه الألباني).

ويفرق بين النصح لولي الأمر الظالم وبين إنكار المنكر بالعموم، فإنكار المنكر بالعموم واجب على كل مسلم، وبالأخص رد الظالمين لمن استطاع أن يغير ويصلح بدون أن يترتب على ذلك مفسدة أعظم، فقد جاء عن أبي بكر الصديق أنه قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية، وتضعونها على غير موضعها (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)، وإننا سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقابٍ وإنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرن على أن يغيروا، ثم لا يغيروا إلّا يوشك أن يعمهم الله منه بعقابٍ (صحيح أبي داود، وصححه الألباني). ولقد بايع النبي ﷺ أصحابه على السمع والطاعة والنصح لكل مسلم كما جاء ذلك عن جرير بن عبد الله أنه قال: بايعتُ النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، فلّقنني، فيما استطعتُ، والنصح لكلِّ مُسلمٍ (صحيح مسلم). فالنصح يكون لكل مسلم سواء كان ولي الأمر وغير ولي الأمر ويكون بحسب الحاجة وبالْحِكمة والموعظة الحسنة. ومن المصلحة في أغلب الأحوال أن تكون النصيحة لولي الأمر بالسّر لما

قد يترتب على الجهر بها من الفتن أو التحريض. ولهذا فقد قال النبي ﷺ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لَذِي سُلْطَانٍ فِي أَمْرِ فَلَا يَبْدِهِ عِلَانِيَةً وَلَكِنْ لِيَأْخُذَ بِيَدِهِ فَيُخْلُو بِهِ فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَلِكَ وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ (صححه الألباني في تخریج کتاب السنة). فلو كانت هذه النصيحة لسلطان ظالم فهذا من أفضل الجهاد كما جاء ذلك عن أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ، وَفِي رِوَايَةٍ: كَلِمَةُ حَقٍّ، عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ (صحيح ابن ماجه، وصححه الألباني).

وأما الخروج على ولاة الأمور فشرطه أن يكون عندهم كفرا بواحا ظاهرا لا شك فيه. فقد جاء عن عبادة بن الصامت أنه قال: دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعَنَا، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَآثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، قَالَ: إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَ كُفْرٍ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ (صحيح مسلم). ومن المعلوم أنه ليس كل حكم بغير ما أنزل الله كفر ومن ذلك بلا شك القوانين الوضعية التي لا تعارض كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. ومثال ذلك الأمور التي فيها مصالح الناس كالأموال التنظيمية المباحة فهذا أمر مطلوب ولازم وبه يؤجر ولي الأمر لما في ذلك من نفع عام لجميع المسلمين، كت تنظيم طرق سير السيارات، وقوانين حماية البيانات، وغيرها من القوانين التي بها تحفظ الدماء، والأموال، والأعراض. والكفر البواح لا يكون بالحكم بغير ما أنزل الله مع الإقرار بالذنب دون الاعتقاد بجواز ذلك والجهر به كمن يفعل ذلك من باب الهوى. وإنما الكفر البواح هو الاعتقاد مع الجهر أن الحكم المخالف لشرع الله وكتابه هو حكم جائز على وجه التفضيل أو المساواة أو الرد أو غير ذلك. ومن ذلك من يعتقد بأفضلية حكم غير الله على حكم الله أو مساواة حكم غير الله مع حكم الله أو جواز حكم غير الله أو رد حكم الله، المخالف لشرع الله وكتابه والجهر بذلك. ولقد بين ذلك الشيخ ابن باز رحمه الله في بيان القوانين الوضعية والآراء البشرية التي تخالف شرع الله فقال: الحكم بغير ما أنزل الله [بالقوانين التي تخالف شرع الله] أقسام،

تختلف أحكامهم بحسب اعتقادهم وأعمالهم، فمن حكم بغير ما أنزل الله يرى أن ذلك أحسن من شرع الله فهو كافر عند جميع المسلمين، وهكذا من يحكم القوانين الوضعية بدلا من شرع الله ويرى أن ذلك جائز، ولو قال: إن تحكيم الشريعة أفضل فهو كافر لكونه استحل ما حرم الله. أما من حكم بغير ما أنزل الله اتباعا للهوى أو لرشوة أو لعداوة بينه وبين المحكوم عليه أو لأسباب أخرى وهو يعلم أنه عاص لله بذلك وأن الواجب عليه تحكيم شرع الله [وإنما خالفها فعلا لا عقيدة لهوى] فهذا يعتبر من أهل المعاصي والكبائر ويعتبر قد أتى كفرا أصغر وظلما أصغر وفسقا أصغر كما جاء هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن طاووس وجماعة من السلف الصالح وهو المعروف عند أهل العلم. والله ولي التوفيق (مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز: 4/416).

7.3 مسألة التفرق في الدين

7.4 مسألة تجريح الأعيان

يقول شيخ الإسلام بن تيمية: وليعلم أن المؤمن تجب موالاته، وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته، وإن أعطاك وأحسن إليك؛ فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب؛ ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه، والبغض لأعدائه، والإكرام لأوليائه، والإهانة لأعدائه، والثواب لأوليائه، والعقاب لأعدائه. وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة: استحق من الموالة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعادة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا، كاللص

الفقير تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته. هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة، وخالفهم الخوارج، والمعتزلة، ومن وافقهم عليه، فلم يجعلوا الناس لا مستحقاً للثواب فقط، ولا مستحقاً للعقاب فقط.

وقال أيضاً: معلوم أنه في كل طائفة بر، وفاجر، وصديق، وزنديق، والواجب موالاة أولياء الله المتقين من جميع الأصناف، وبعض الكفار والمنافقين من جميع الأصناف، والفاسق المِلِّيَّ يعطى من الموالاة بقدر إيمانه، ويعطى من المعاداة بقدر فسقه، فإن مذهب أهل السنة والجماعة أن الفاسق المِلِّيَّ له الثواب والعقاب إذا لم يعف الله عنه، وإنه لا بد أن يدخل النار من الفاسق من شاء الله، وإن كان لا يخلد في النار أحد من أهل الإيمان، بل يخلد فيها المنافقون كما يخلد فيها المتظاهرون بالكفر. اهـ.

وراجع للفائدة الفتوى رقم: 113503.

المصادر

[1] عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت 1376 هـ). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420 هـ - 2000 م. الكّاب في المكتبة الشاملة.

[2] أبو هلال العسكري (ت 395 هـ). معجم الفروق اللغوية. مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1412 هـ - 1991 م. الكّاب في المكتبة الشاملة.

[3] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (ت 256 هـ). صحيح البخاري. دار التّأصيل - مصر، الطبعة الأولى، 1433 هـ - 2012 م. الكّاب في المكتبة الشاملة.

[4] عبد الله بن عبد الحكم الفقيه (ت 214 هـ). سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه. عالم الكتب - لبنان، الطبعة السادسة، 1404 هـ - 1984 م. الكّاب في المكتبة الشاملة.

- [5] شمس الدين الذهبي (673-748 هـ). سير أعلام النبلاء. دار الحديث - مصر، الطبعة الأولى، 1427 هـ - 2006 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.
- [6] ابن عبد ربه الأندلسي (ت 368 هـ). العقد الفريد. دار الكتب العلمية - لبنان، الطبعة الأولى، 1404 هـ - 1984 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.
- [7] محمد بن جرير الطبري (224-310 هـ). كتاب تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك. دار المعارف - مصر، الطبعة الثانية، 1387 هـ - 1967 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.
- [8] أبو نعيم الأصبهاني (ت 430 هـ). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. مطبعة السعادة - مصر، الطبعة الأولى، 1394 هـ - 1974 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.